6me Année No. 442

Lundi - 22 - 12 - 1941

بدل الاشتراك عن سنة

٦٠ في مصر والسودان
٨٠ في الأقطار العربية
١٠٠ في سائر الممالك الأخرى
١٢٠ في العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

الإعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

السنة التاسعة « القاهرة في يوم الاثنين ٤ ذو الحجة سنة ١٣٦٠ — الموافق ٢٢ ديسمبر سنة ١٩٤١ » العــــدد ٤٤٢

الفهـــــــرس

على ذكرى « عيد الميلاد »

بعد ثلاثة أيام تتجدد ذكرى « مولد المسيح » فيقف أبناء « نابيل » آلة الحرب ؛ ثم يخرون جاثين لله في الثكنات والمطارات والبوارج والخنادق والمخابئ والكنائس يرتلون خاشعين نشيد السلام المأثور :

« المجد لله في الأعالي ، وعلى الأرض السلام ! »

فإذا أصبحوا انقلبوا سراعاً إلى آلات الفناء فأرسلوا منها الصواعق على إخوانهم الذين هتفوا معهم بالمجد لله في السماء ، وبالدوام للسلام على الأرض ! فسحقوهم أو أحرقوهم على رمال لوبيا ، وفوق ثلوج روسيا ، وبين أطباق الهواء ، وتحت أعماق الماء ؛ كأنما اختلت الدنيا ، واختبلت الناس ، وانقلبت المعاني ، فصار الدين معناه الكفر ، والسلام معناه الخصام ، والمفاوضة معناها الختل ، والمعاهدة معناها الغدر ، والأخوّة معناها العداوة ؛ وأصبح هذا الكوكب بقاراته ومحيطاته وسكانه كرة من النار تتقاذفها الأرجل الحديدية بين فريق هتلر وموسوليني والميكادو ، وفريق تشرشل وروزفلت وستالين . ولا يدرى إلا الله من سيقذفها في (الجول) ؛ وما الجول هنا إلا عبودية الأبد أو حرية الأبد !

كان العالم المسيحي في مختلف أقطاره يجدد بعيد الميلاد

ما انطمس في نفسه من معاني المودة والرحمة والأسرة والطفولة ، فيصل بالتزاور ما انقطع من أسباب القرابة ، ويؤكد بالتهادي ما وهي من عرى الصداقة ؛ وكان الميكادو على وثنيته يقوم بدور الشيخ الطيب « نويل » ، فيحمل اللعب من اليابان بأبخس الأثمان إلى كل بيت فيه طفل ؛ فلما صُلِبت المسيحية في أوربا على سلوب النازية المقوف ، انتكست الطباع وانعكست الأوضاع ، وانكفأ بعض الشعوب إلى البربرية الأولى ، يغالبون بعصبية الجنس ، ويسودون بيأس الحديد . وجامل الميكادو في الشر كما جامل في الخير ، فترك دور الشيخ « نويل » وقام بدَور الأب « فُوبتار[1] » ، فاستبدل بلعب الأطفال من سور الدبابات والطائرات والسابحات ، قطعاً كالجبال من الحديد والبارود تدك مدائن البر ، وتبتلع جزائر البحر ، وتشمل النار فيما بقي من أطراف الأرض ، حتى أوشك أن يجاوز الصواب قول الفلكيين إنها كوكب مظلم !

* * *

بعد ثلاثة أيام تعاود الناس ذكرى ليلة الميلاد وهم من تفاعل المذاهب والقرون في رجفة من الصراع اللاحق توشك أن تقيم عليهم القيامة . وسيذكر الشباب المجندون لمجاهدة الحق أو مجاهدة الباطل أنهم كانوا في مثل هذه الليلة أمام المواقد أو حول الموائد قرة عيون وزينة بيوت ، وأنهم في هذا اليوم يستقبلون عيد الحياة وهم مشردون في مجاهل الأرض ومساقط الموت لا يعرفون متى يصرعون ولا أين يقبرون . ثم يقول هذا الشباب الريّق الريان لنفسه : أبعد التربيب والتهذيب والعيش الناعم والأمل الباسم والغد المرجوّ نصير طحيناً لهذه الرحا الهائلة من غير سبب موجب إلا نزوة من نزوات الطيش ، في رأس رجل من طلاب العيش ؟!

أما الساسة الذين يحاولون أن يقرروا مصير العالم على مشيئة الله أو على هوى الشيطان ، فسيذكرون بمولد المسيح أشياء أُخَر : سيذكر هتلر بيلاطس ودِيُقليانوس ، والدتشي يهوذا ونيرون . وسيذكر رزفلت بولس ، وتشرشل قسطنطين ؛ أما استالين إن ذكر فسيذكر لوثر ؛ وأما الميكادو فلا يذكره الميد ممنى من حياة المسيح ، ولا مغزى من تاريخ المسيحية ؛ إنما يذكره تلك اللعب التي كان يقدمها إلى لهو الأطفال ليربح من ورائها القروش ، فأصبح اليوم يقدمها إلى قتل الرجال ليربح من ورائها الممالك !

* * *

سبحانك ربّ السموات والأرض ! ما كان لنفس مؤمنة أن تحسبك تركت أمر هذا العالم لهؤلاء الحمقى من خَلقك .

لا جرم أن لك من هذه القارعة الصغرى حكمة تدق على بصيرة ابن آدم

إن مع القيامة نشوراً أكمل وحياة أفضل . كل نظام سنّه ابن العاصي سيتغير ، وكل قانون نزّغ فيه الشيطان سيلغى .

لن يبقى يا مولاي غير شرعك ، ولن يدوم غير دينك

وكلّت ابن آدم إلى نفسه فجرب قواه كلها في تدبير أمره وتسخير غيره ، فما أنتج غير الاضطراب والخراب والفوضى .

تبجح بعلمه وتشريعه وفلسفته ؛ وزعم أنه هيمن على الغريزة بقوة الخلق ، وسيطر على الطبيعة بسلطان العلم ، وتوهم أنه يستطيع بما كشف من الأسرار وذلل من القوى أن يصنع مفاتح الغيب ويقتحم أبواب القدر ؛ فلما ابتليته بتحقيق زعمه وتطبيق فهمه ، تحرك في طبعه الطين الراسب ، وتيقظ في نفسه الحيوان الراقد ، وتألبت الأهواء على رأيه فاضطرب وتفرق ، وتغلبت المطامع على جمعه فتنازع وتمزق !

* * *

رباه إنا مؤمنون ، وإنا مطمئنون ! فأدم علينا نعمة الهداية ، واكفنا شرّ هذه الغواية ، واجعلنا الأدلاء على طريقك ، والأمناء على حقك ، حتى تنجلي هذه الغمة عن الدنيا ، فيرجع إليك الغوى ، ويخضع لك القوى ، ويلوذ بك الضعيف !

احمد حسن الزيات

(١) يعتقد أطفال المسيحيين أن بابا نويل يزور البيوت ليلة عيد الميلاد ومعه الأب فوبتار فيوزع هو على مقلاتهم الحب والحلوى ، ويترك الأب فوبتار لخبثائهم حزما من العصي الصغيرة الدقة

مسابقة الأدب العربي لطلبة السنة التوجيهية

ديوان حافظ ابراهيم

للدكتور زكي مبارك

تمهيد — اهتمام العرابي باشا بنشر آثار الأدب الحديث — شرح ديوان حافظ والنص على «محاسن» الشارحين — درس الديوان — توجيهات أدبية — المحدث حافظ ابراهيم — ما هو السر في انتصار شوقي على حافظ ؟ وما قيمة حافظ على وجه التحديد ؟

تمهيد:

لما شعر «شوقي» رحمه الله بأن الشيخوخة بدأت تراوحه وتغاديه أقبل بجدّ على طبع «الشوقيات» ليأمن الخوف على شعره من الضياع قبل أن يموت .

واتفق بعد ظهور الجزء الأول والثاني من «الشوقيات» أن قضيت ساعة مع «حافظ» في منزل السيد حسن القاياتي فاقترحت عليه أن يجمع أشعاره على نحو ما صنع شوقي ، فأجاب بعبارة تنذر بالتسويف ، ويرجع ذلك إلى أن «حافظ»[1] لم يكن يملك من الصبر على المراجعة بعض ما كان يملك «شوقي» ، فقد كانت حياته اليومية مهدّدة بالقلق ، وكان لا يجد الأنس في غير الانتقال من مكان إلى مكان ، ليخرج من عزلته البيتية بمحادثة من يصادف من الرجال .

وبعد أن انتقل حافظ إلى جوار الله في صيف سنة ١٩٣٢ قام جماعة من أصدقائه وقرروا الاحتفال بذكراه ، وكانت لهم يومئذ مشروعات عظيمة ، منها تأليف كتاب في إظهار عبقريته يشترك فيه فحول الباحثين ؛ ومنها طبع ديوانه ، وإقامة قبره على قواعد عالية تذكّر الناس بمنزلته السامية ؛ ومنها دعوة الأدباء في سائر الأقطار العربية للاشتراك في حفلة التأبين ، إلى آخر ما يجود به الخيال في مثل تلك الحال .

وفي ذلك العهد كتبت كلمة في «البلاغ» قلت فيها إن تلك القرارات لن ينفّذ منها شيء ، ورجوت أصدقاء «حافظ» أن يقفوا وفاءهم على عمل واحد هو طبع الديوان ، فقد كنت أعرف أن أدباءنا في أغلب أحوالهم رجال أقوال ، لا أعمال ،

وهل صنعوا شيئاً في إنقاذ ما ترك «زكي باشا» من الآثار الأدبية ، وفيها نفائس قد لا يجود بمثلها الزمان ؟ وهل تظنهم يلتفتون إلى جمع ما تبدّد من آثار «محمد مسعود» ؟ .

لم يصنع أصدقاء حافظ شيئاً يؤكد الوفاء لذلك الروح الوهاج ، ولكن الله لم يشأ أن يضيع حافظ في هذه البلاد ، فكانت تلك الالتفاتة الكريمة من وزير المعارف الأسبق «علي زكي العرابي باشا» ، الالتفاتة التي قضت بأن يُطبع ديوان حافظ على نفقة وزارة المعارف ، وأن يكون ظهوره بداية لطائفة من المطبوعات تُحيي ما يُخاف عليه من آثار الشعر الحديث ، فقد كان من العجب أن تكون مصادر الأدب في القرن الثاني أقرب إلى الأيدي من مصادر القرن الرابع عشر ، وتلك ظاهرة لا نسكت عنها إلا كارهين .

وفي هذا المعنى كتبت في جريدة المصري مقالاً جاء فيه :

«إن العرابي باشا أخذ جزاءه الأوفى يوم ظهر ديوان حافظ ، فقد استطاع أن يؤدي إلى اللغة العربية خدمة جليلة بإحياء شاعر كان في عصره ملء المسامع والأفواه والقلوب . . .

وما الذي يمنع من أن يتفضل فيشير بطبع مجموعات وافية مما نظم الشعراء وكتب الكاتبون منذ فجر النهضة الحديثة إلى اليوم ؟ !

إنه خليق بأن يجعل ديوان حافظ فاتحة لعهد جديد من المطبوعات العلمية والأدبية التي تشهد بما صنعت مصر في العهد الحديث ، وهو إن حقّق هذه الرغبة فسيمكّن الأدباء في مصر وفي سائر الأقطار العربية من الوقوف على طلائع النهضة الأدبية ، وهي نهضة نرجو أن تقوى وتستفحل لتُشعر الأبناء والأحفاد بأن لهم لغة قوية تُطاول اللغات الحية ، وتسابقها في ميادين العلوم والآداب والفنون . فإن قال الوزير إن أمثال هذه الأعمال مما يقوم به الأفراد لا الحكومات فإنا نجيب بأن الحال في مصر تختلف عما عداها بعض الاختلاف ؛ فالمصريون لا يزالون يودون أن ترفع عنهم حكومتهم كثيراً من التكاليف ، ومن شواهد ذلك مطبوعات الجامعة المصرية ومطبوعات دار الكتب المصرية ؛ فهذه المطبوعات يعجز عنها الأفراد ، ولا تستطيع المكاتب أن تنهض بها إلا بجهد عنيف . وما بالنا نلحّ على الوزير في تحقيق هذا الغرض ؟ إنه يعرف أن دراسة الأدب الحديث مقررة في المدارس الثانوية والمعاهد العالية ، ودراسة هذا الأدب ستظل ضعيفة ما دامت المصادر بعيدة عن أيدي الأساتذة

(١) أنا أبغض إعراب الأعلام

والطلاب ؛ فهو حين يحقق هذا الغرض يؤدى خدمة أساسية لا كمالية ، ويجعل أبناءه فى المدارس الثانوية والعالية قادرين على التمكن من ناصية الأدب الحديث ، وهو كذلك سيسن شريعة جديدة لأمثاله من وزراء المعارف فى مختلف الأقطار العربية ؛ فقد نسمع بعد قليل أن وزراء المعارف فى الشام والعراق والمغرب والحجاز قرروا نشر ما اندثر عندهم من معالم الأدب الحديث ، وعندئذ تقترب هذه الشعوب بعضها من بعض ، وتضيع مآرب الباغين العادين من خصوم لغة القرآن »

وإنما أعدت هذه الفقرة من مقال نشرته قبل سنين لأنى أجد فيها دعوة يجب أن تجدد فى كل يوم ، فما تزال الحكومات العربية قليلة الالتفات إلى أهمية الأدب الحديث ، وما يزال فى الدنيا أقوام يرون الأدب الجديد أقل قيمة من الأدب القديم ، مع أن أدبنا فى أكثر نواحيه أعظم حيوية من أدب القدماء ، وهو يصور ما نحن عليه من قوة وضعف ، وإيمان وارتياب

شرح ديوان حافظ

شرح هذا الديوان ثلاثة من أهل الأدب ، هم الأساتذة : أحمد أمين ، وأحمد الزين ، وإبراهيم الإبياري . وقد نص الأستاذ أحمد أمين فى المقدمة على أن هذا الشرح أريد به ناشئة الأدب وناشئة الشعر ، ولم يرد به الخاصة والمنتهون

ومعنى هذا الكلام أنهم قد يوضحون ما لا يحتاج إلى توضيح رعاية لأفهام المبتدئين

وكان الأمر كما قالوا فى المواطن التى تسعفهم فيها المعجمات ، كأن يقولوا إن السدة هى الباب ، والشجون هى الأشواق

أما إذا احتاج الشرح إلى بحث فالمبتدئون فى حكم المنتهين ، ولا موجب للعناء !

ومن أمثلة ذلك :

١ — وردت فى شعر حافظ كلمة (آذار) فقال الشارحون :

« شهر من شهور السنة المسيحية معروف »

فهل فى الحق أن المبتدئين من شبان مصر يعرفون آذار ؟ كان الواجب أن ينص على أن (آذار) هو شهر (مارس)

والقول بأن آذار من شهور السنة المسيحية خطأ فى التاريخ؛ والصواب أن يقال من شهور السنة الشمسية ، فقد عرف التقويم الشمسى قبل المسيح بأزمان طوال

ونحن اليوم نقول سنة قمرية وسنة شمسية ، أما أسلافنا من العرب فكانوا يقولون : سنة هلالية وسنة خراجية

٢ — ورد فى شعر حافظ اسم (مانى) فقال الشارحون :

« هو صاحب مذهب المانوية المشهور »

فهل يمكن القول بأن مذهب المانوية مما يعرف المبتدئون ؟ ثم أراد الشارحون أن يبينوا الوقت الذى ظهر فيه (مانى) فقالوا إنه ظهر فى أيام سابور بن أردشير

وأقول إن هذا الكلام كان ينفع من يعيشون قبل ألف سنة ، يوم كان العرب على بينة من تواريخ الأكاسرة ، أما اليوم فهو كلام غامض المدلول

٣ — ورد اسم (روسو) فى شعر حافظ فقال الشارحون :

« روسو كاتب فرنسى معروف ، وهو صاحب كتاب الاتفاق الجمهورى »

وما أعرف شيئاً عن كتاب « الاتفاق الجمهورى » ولعلهم يريدون كتاب « العقد الاجتماعى » إلا أن يكونوا أبصر منى بالأدب الفرنسى ، وذلك جائز !

٤ — وكلمة (معروف) كثيرة الدوران على ألسنة الشارحين : فأبو تمام شاعر عباسى معروف ، والبحترى شاعر عباسى معروف ، وجمال الدين الأفغانى فيلسوف معروف ، ومحمد باشا سعيد هو الوزير المعروف ، إلى آخر ما نثروا فى الشرح من هذا اللفظ المعروف !

٥ — والترقيم خطأ فى بعض الأحيان ، فقد جاء فى المقدمة أن حاجة الشاعر إلى الخيال الخصب أقوى من حاجة الناثر ، والعبارة صحيحة ، ولكنها ختمت بعلامة التعجب ، ولا موجب لذلك .

٦ — وأشير فى المقدمة إلى « حادثة المؤيد » بلا نص على مكانها من صفحات الديوان ، فهل أهملت لأنها من الحوادث المعروفة ؟

٧ — وكذلك أشير إلى « وداع اللورد كروس » ، والصواب « لورد كرومر » ، لأن « كرومر » فى هذه العبارة لا يقع موقع عطف البيان ، وإنما يقع موقع المضاف إليه من المضاف ، وهذا أمر قد يخفى على المبتدئين ، كما خفى على الأستاذ أحمد أمين .

٨ — وفى المقدمة : « لئن نقص حظ حافظ فى الخيال فقد غطى عيبه شيوع الجمال فى سائر نواحيه » ؛ والصواب « لقد » وحافظ نفسه يقول :

لئن عدّوكم لقد كانت أوائلكم تهدى أوائلهم أزمان أزمان

وقد عثرت على شواهد وقعت فيها الفاء في مكان اللام في مثل هذا التعبير ، وإذن تُقبل تلك العبارة بقول مرجوح ، وإنما أدافع عن هذا الخطأ لأنه وقع في بعض أشعاري ! !

٩ — وفي ص ١٥١ ج ١ قال حافظ في محمد المويلحي :

فإذا نثرت على الصحيفة خِلتها   غرساً ألحّ عليه صوب قطار

وجاء في الشرح أن القطار جمع قطر بفتح فسكون وهو المطر ، ثم قال الشارحون : إن الديوان المطبوع فيه « نثار » مكان « قطار »

وأقول : إن الصواب إثبات « نِثار » وتصحيح كلمة « غرساً » ، فيكون البيت :

فإذا نثرت على الصحيفة خلتها   عرساً ألحّ عليه صوب نثار

والنثار هو المعروف في مصر بالنقوط في يوم العرس ، وذلك هو المراد .

١٠ — وفي ص ٦٦ ج ١ قال حافظ في تحية واصف غالي :

مازلت تُلقى على أسماعهم حججاً   في كل ناد وتأتيهم بسلطان
حتى انثنيت وما للعُرب مجترئ   على البناء ولا زار على الباني

والصواب وضع كلمة « الغَرب » مكان « العُرْب »

١١ — وفي الصفحة عينها أن رينان هو الفيلسوف الفرنسي المعروف الذي ردّ عليه الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده فيما رمى به الإسلام والمسلمين من تهم ، وما نعرف أن الشيخ محمد عبده كانت له مواقف مع رينان ، وإنما كانت له مواقف مع هانوتو ، أما الذي ردّ هجوم رينان على المدنية الإسلامية فهو جمال الدين الأفغاني

١٢ — وفي ص ٦٠ ج ١ قال حافظ :

فانبرتْ ظبية الشآم وقالت   بعض هذا فقد رفعت الشآما

وجاء في الشرح : أي قولي بعض هذا ، إذ لا نستحق كله .

والصواب أن يقال في الشرح : إطوِ بعض هذا ، فما نستحق كل هذا الثناء

١٣ — والاضطراب في رسم الأعلام الأعجمية يقع أحياناً في هذا الشرح ، فهو جُو الشاعر الفرنسي تراه مرة هيجو ومرة هوغو ومرة هوجو ؛ وهنا نذكر أن الأعلام الأوربية نُشرتْ جميعاً بحروف عربية ، وكان يجب أن ترسم أيضاً بالحروف اللاتينية ليُعرف نطقها بالضبط ، فإن تعذّر هذا على الأستاذين أحمد الزين وإبراهيم الإبياري ، فقد كان يسيراً على الأستاذ أحمد أمين

١٤ — والأخبار الأدبية المتصلة بقصائد حافظ لم تأخذ حقها من البيان ، وستصير هذه الأخبار من المنسيات بعد حين ، فكان من الواجب أن تسجل قبل أن تضيع ، فإن لها أهمية في توضيح مرامي ذلك الشاعر المِرّيض ...

١٥ — وسكت الشارحون عمن سبقهم إلى شرح « القصيدة العمرية » ، وقد شُرحتْ مرتين : شرحها المرحوم محمد بك الخضري ، وشرحها المرحوم مصطفى بك الدمياطي ، والنص على مثل هذا واجب في الطبعات العلمية . وكان يجب أيضاً أن يُنص على تأثير هذه القصيدة في الشعر الحديث ، فعلى غرارها صاغ الشيخ محمد عبد المطلب « القصيدة العلوية » ، وصاغ الشاعر عبد الحليم المصري قصيدته في الجد الأكبر للملك فؤاد ، وكان لتلك القصائد رنين في المحافل الأدبية ، وقد تكون مصدر الوحي للشاعر أحمد محرم في « الإلياذة الإسلامية »

درس الديوان

المقرر للمسابقة هو الجزء الأول ، ولكن النظر في الجزء الثاني ينفع ، لأنه يكمل صورة حافظ الشعرية

وفي الجزء الأول مقدمة كتبها الأستاذ أحمد بك أمين ، وهي مقدمة وافية ، وصاحبها بعناية تعين الطلبة على اجتياز الامتحان

ونقدم التوجيهات الآتية :

أولاً — جاء في الجزء الأول أشعار تصور أشجان حافظ حين كان في السودان ، فيجب الرجوع إلى ما يتصل بهذه الناحية في الجزء الثاني

ومع هذا لا يستطيع الطلبة تصور محنة حافظ بأيامه في السودان إلا إن نظروا في كتاب «ليالي سطيح» ؛ والرجوع إلى هذا الكتاب مفيد جداً ؛ ففيه صفحات هي أقوى وأجمل من كل ما هتف به حافظ في دنياه ؛ وقد تكون أعظم ما أُثِر من الثورة على الاستبداد

وكان حافظ يحفظ «ليالي سطيح» عن ظهر قلب ، كما يحفظ قصائده الجياد ، ومن لم ير حافظ في « ليالي سطيح » فهو عن أدبه من الغافلين

ثانياً — حافظ كثير الكلام عما عرف من الرجال ، فديوانه ليس إلا صوراً جميلة أو دميمة لخلائق من اتصل بهم من قرب أو من بُعد ، ولهذا تقل في شعره التأملات النفسية ، لأنه دائماً موصول بالمجتمع

ثالثاً — حافظ كثير التعريض فى مدائحه وأهاجيه ، وهو تعريض لم يظفر بما يستحق من الشرح ، فإن استطاع الطلبة أن يواجهوا لجنة الامتحان بأشياء سكت عنها الشارحون فقد يظفرون بطيف من الثناء !

رابعاً — قد أُرِّختْ أكثر قصائد حافظ ، وبقى فريق منها بدون تأريخ ، فعلى الطلبة أن يبحثوا عن المناسبات ، وإليهم هذا الشاهد :

فى ص ٢٠١ ج ١ قال حافظ أبياتاً فى توديع شوقى يوم سافر إلى مؤتمر المستشرقين ، وننظر فى الشرح فنجد إحالة على الحاشية رقم ٥ ص ٥٠ . فإذا رجعنا إلى تلك الحاشية لم نجد كلاماً عن المؤتمر ولا عن مكانه فى التاريخ ، فماذا نصنع ؟

نرجع إلى الجزء الأول من الشوقيات ، وهو أيضاً مقرر لمسابقة الأدب العربى ، فنجد أن ذلك المؤتمر عُقِد فى جنيف (سبتمبر سنة ١٨٩٤)

خامساً — قد يُظن أن الشارحين دونوا جميع قصائد حافظ ، وليس الأمر كذلك ، فلحافظ قصائد لم تضف إلى هذا الديوان وسيدل الشارحين على تلك القصائد عند الطبعة الثانية

سادساً — قال الأستاذ أحمد أمين إن الحزن الذى غلب على طبيعة حافظ هو الذى قضى بأن تكون أكثر قصائده فى المراثى .

ونقول إن الرثاء كان يُفرض على حافظ فى كثير من الأحايين ، ومن هنا تقلّ اللوعة فى أكثر مراثيه ، فيستر الموقف باجترار حوادث التاريخ

سابعاً — قيل وقيل إن حافظ لم يكن من أهل الصدق فى الغزَل والتشبيب ، فما سبب ذلك ؟

يرجع السبب إلى أن ضجيج المجتمع شغل حافظ عن سحر الجمال ، وقد يرجع إلى ضعف فى حاسته الذوقية من هذه الناحية ، فالإحساس بالجمال يتفاوت عند الشعراء ، كما تتفاوت الحواسّ عند سائر الناس

وربما جاز القول بأن حافظ كان فى سريرة نفسه من عبيد المجتمع ، فهو يغنّى على ليلى المجتمع قبل أن يغنى على ليلاه ، والمجتمع كان ينتظر منه البكاء على المصائب اليومية ، قبل أن ينتظر منه التغريد فوق أفنان الجمال

ثامناً — تشهد أشعار حافظ بأنه كان ابن زمانه وابن وطنه ، فلم تكن له نزعة فلسفية ولا وثبة إنسانية إلا فى أندر الأحيان ، وأشعاره فى مآسي بعض الأمم الشرقية أو الغربية لم تكن إلا صدى للعواطف المصرية فى ذلك الحين ، وهى فى الأغلب عواطف تخلقها الجرائد والمجلات

المحدث حافظ ابراهيم

نقول فى شعر حافظ وفى نثره ما نشاء ، ونتجنى عليه كما نريد ؛ أما حافظ المحدِّث فهو أديب لم تر مثله أندية الأدب منذ أجيال طوال

وما ظنكم برجل كان الزعيم سعد زغلول يتشهّى حديثه كما يتشهى عودة الشباب ؟

لا أذكر أنى رأيت رجلاً فى مثل ظرف حافظ ، ولا أكاد أصدق أن الدنيا ستسمح بأن يكون له ضريب أو مثيل

سألت أستاذى الشيخ (رنيه دوميك) عن أهمّ خصائص أناطول فرانس فأجاب :

Le meilleur causeur, la plume à la main

ولو أن شاعرنا حافظ كان يكتب كما كان يتكلم لكان سحره فى اللغة العربية شبيهاً بسحر أناطول فرانس فى اللغة الفرنسية

وبراعة حافظ فى الحديث هى التى قضت بأن ينتصر عليه غريمه شوقى ... كان حافظ يتحدث ويتحدث إلى أن تنفد قواه فلا تبقى له قدرة على الغناء ؛ وكان شوقى يصمت ويصمت ليستجمَّ فتبقى له القدرة على السجع والهُتاف . والقُوى الإنسانية لها حدود ، وإلا فكيف جاز أن يكون المدرسون أعجز الناس عن الشعر والخطابة والتأليف ؟

ألا يرجع ذلك إلى أنهم يضيعون نشاطهم فى الدرس ، فلا تبقى لهم عافية يساورون بها تلك المواهب الأدبية ؟

أراد حافظ أن يُمتع أهل زمانه فأشاعوه . كان زينة الأندية والمحافل ، وكان حديثه أشهى من وعد الحبيب بعد طول الجفاء ، وأطيب من اندحار الرقيب ، وأشهى إلى النفس من الانتصار على السفهاء ، إن كان الانتصار على السفهاء من الممكنات !

عليك — يا حافظ — تحية الشعر والنثر والحديث

وإلى روحك فى عالم الخلود ، نقدم آيات الثناء ، يا حجتنا الباقية على أن مصر مهد الروح المتوهج والقلب الخفاق

زكى مبارك

حكم فى القضية ٥٠٦٣ سنة ١٩٤١ عسكرية بنى سويف بتغريم محمد على طايع من نزلة حرفه مركز ببا خمسة جنيهات لأنه باع أذرة بأزيد من التسعيرة

بحث مقارن

الوضع الاجتماعي للمرأة

في الإسلام

للأستاذ محمد عبد الرحيم عنبر

مقدمة

لم يتسع نطاق الحديث عن المرأة في عصر من العصور بقدر اتساعه في العصر الحاضر الذي يمكن أن يسمى بحق «عصر المرأة». ففي كل زاوية من زوايا المعمورة تشمّ رائحة المرأة: شخصاً، أو موضوعاً، أو عاطفة، أو هدفاً. وبالجملة هي تشغل حيزاً كبيراً من تفكير الرجال وضمير المجتمع. وإذا كان كل شيء في ذاته قابلاً للمدح والذم فإن المرأة قد تفرّدت بالحصول على نهايتيهما!

ولا عجب أن تحتل المرأة هذه المكانة العريضة، فإنها لم تعد محلاً لقضاء شهوة، أو سلعة تباع وتشترى، أو خادمة ذليلة، أو مواطناً لا حقوق له، أو حتى تمثالاً جميلاً يركع الرجل تحت قدميه؛ وإنما أصبحت الممثل اللاعب في حياة الرجال من وراء ستار، و«القالب» الفذ العميق الذي تتشكل فيه شخصية المجتمع، ويحمل أفراده ملامحه، وينطبع فيهم كل ما به من خير أو شر. ثم هي قبل كل شيء ما زالت — كما كانت منذ فجر البشرية — حجر الزاوية في الأسرة الإنسانية.

ومن البدهي أن يعنى الفكر العصري بالكلام عن المرأة بعد إذ ظفرت بحقوق كثيرة، ووثبت هذه الوثبة الاجتماعية الكبيرة، وليبحث فيما إذا كانت قد جاوزت بذلك حدود طبيعتها، واعتدت على حقوق الرجل، وجنت في النهاية على نفسها وعلى غيرها أم لا؟ وأي الشرائع أهدى لها وأكثر اعتناء بها؟

ثم هل الشريعة الإسلامية قد حررتها وأعزتها وصانتها أم قضت بعبوديتها وأذلتها وابتذلتها!

المرأة في غير الشريعة الإسلامية

يروى لنا علماء الاجتماع أن الرجل، عند بدء الخليقة، كان يعيش عيشة الحيوان، يطوف في الأرض، ولا يعرف الأسرة بالمعنى الذي نفهمه. ويعتقدون أنه لم تكن له يومئذ أوضاع مرعية في اتصاله بالمرأة، وكان كل احتفاله بها منصباً على أن يقضي شهوته البهيمية منها ثم ينصرف عنها لا يلوي على شيء، وتظل هي وحدها حتى تضع حملها، وتسعى لتقوت بنيها الذين لا يعرفون لهم أباً، ولا يستشعرون الأبوة، ولكنهم ينسبون إليها. ومن ثم كانت — المرأة — تبني الأسرة بمفردها. ولم تكن لها في تلك المرحلة قِبلَ الرجل أو القبيل الذي تنتمي إليه أي نوع من أنواع الحقوق، بل كانت حياتها كلها واجبات!

وبعد ذلك استقر الرجل بعض الاستقرار، وبدأت «زعامة الأب Patriarchy» بعد «زعامة الأم Matriarchy». وفي هذا الدور احتكر الرجل المرأة التي جعلها من عبيده وسراريه. وإذا كانت المرأة آنئذ قد تخففت من بعض العبء الذي كان ملقى على كاهلها إلا أنها لم تكن أكثر من ظل للرجل.

فهؤلاء هم الأثينيون — أكثر الأمم القديمة حضارة — عاملوا المرأة معاملة سقط المتاع، تباع وتشترى في الأسواق، بل سموها رجساً من عمل الشيطان، وحرّموا عليها كل شيء سوى تدبير البيت وتربية الأطفال، وأباحوا للرجل التزوج بأي عدد من النساء. أما في إسبرطة، مع أن الرجل كان ممنوعاً من أن يتزوج بأكثر من واحدة إلا في أحوال قاهرة، فقد أبيح للمرأة أن تتزوج بأي عدد تشاء من الرجال!

وكانت المرأة عند اليهود تكره على الزواج والبغاء، وتورث ولا ترث، وكان محجوراً عليها التصرف في مالها الخاص.

وكانت بعض الشرائع تبيح للأب بيع ابنته. ولم تكن المرأة في القانون الروماني شيئاً يذكر، فهي قبل زواجها تحت سلطة أبيها، فإذا تزوجت دخلت في سلطة زوجها.

وكان العرب في الجاهلية يئدون بناتهم، وكان فيهم من يرى أنه لا قصاص ولا دية في قتل المرأة!

وقد قرر أحد المجامع العلمية (كذا!) في روما أن المرأة حيوان نجس لا روح له ولا خلود، ولكن يجب عليها العبادة والخدمة، وأن يكمم فمها كالكلب المسعور لمنعها من الضحك والكلام!!

وفي سنة ٥٨٦ ميلادية عقدت بعض الولايات الفرنسية اجتماعاً عاماً، شهده الآلاف من الرجال الذين ظلوا ساعات طوالا

يبحثون فيما إذا كانت المرأة إنساناً أو غير إنسان ؟ ! وبعد مناقشات جدّية عنيفة أصدر المجتمعون بأغلبية الأصوات قراراً يمنح المرأة درجة « الإنسانية » ، ولكنه يقضي فيما عدا هذا بأنها (لم تخلق إلا لخدمة الرجل) ! !

ويذكر التاريخ أن أهم إنصاف نالته المرأة قبل ظهور الإسلام بنحو ربع قرن ما منحه إياها القانون الروماني ، فإن هذا القانون قد ترك للعذراء والأرملة كل حريتهما ما دامتا بالغتين سن الرشد . أما المتزوجة فقد وضعها تحت سلطة زوجها المطلقة ؛ فهي ، بحسب هذا القانون أشبه ما تكون بالمحجور عليه أو القاصر من الناحية القانونية ، ولزوجها السلطة الواسعة في مراقبة شئونها الشخصية ، وهو حر التصرف في ملكها ومالها من دونها ، وله أن يمنعها من الاجتماع بأي شخص لا يريد اجتماعها به ، وأن يفض رسائلها الصادرة منها أو الواردة إليها !

« كما[1] أنه من جهة أخرى كانت الكنيسة في القرون الوسطى تعلم الأولاد أن الوحشية صفة التنين ، وأن المكر صفة الأفعى ، وأن المرأة قد جمعت بين الرذيلتين . وكان رينان الفيلسوف الفرنسي العظيم (١٨٣٣ — ١٨٩٢) يلاحظ أن الكنيسة رفعت المرأة إلى درجة جلب الخطيئة ! ونرى مارتن لوثر المصلح الديني الألماني الكبير ، ومؤسس المذهب البروتستانتي في النصرانية (١٤٨٣ — ١٥٤٦) قد كان نصيراً لمذهب القائلين بحرمان المرأة من الثقافة . ونرى أيضاً الملك هنري الثامن يصدر أمراً بتحريم مطالعة الكتاب المقدس على النساء وآخرين من طبقة منحطة ! وقد كان النساء طبقاً للقانون الإنجليزي العام (حوالي سنة ١٨٥٠) غير معدودات من (المواطنين) ؛ وكان لذلك مباحاً لبعولهن أن يضربوهن بعصا لا تزيد حجمها على رأس الإبهام . كذلك لم يكن لهن حقوق شخصية ، ولا حق ملكية في ملابسهن ولا في الأموال التي يكسبنها بعرق الجبين » ! !

وقد حدث ، في عهد قريب ، أن باع رجل انجليزي زوجته لشخص كان يغازلها بخمسمائة جنيه بسبب فقره وعدم توافق طباعهما . ولما قدم الزوج للمحاكمة قال محاميه للقاضي أن لا وجه لإقامة الدعوى لأن القانون الإنجليزي كان يبيح بيع الزوجات ، بل لقد بلغ « سعر » الزوجة في سنة ١٨٠١ ستة بنسات (أي نحو ٢٤ مليما) ! ! ولكن القاضي لم يأخذ بدفاع المحامي اللبق ، وقضى بالحكم على الزوج بخمس سنوات ، ذاكراً في أسباب حكمه أن القانون الذي يشير إليه المحامي ويستند عليه قد ألغي في عام ١٨٠٥ (أي بعد نزول القرآن ، وإعلان حرية المرأة المسلمة بنحو اثني عشر قرناً ! !)

واليهود هم أول أمة سمحت أن يكون الزواج مبنياً على مجرد الاختيار الشخصي ، وتقدمت عندهم حقوق المرأة بخطى كبيرة . وقد جاءت المسيحية من بعدهم فضاعفت هذه الحقوق ، وحرّمت تطليق المرأة إطلاقاً ، ثم أباحته بشروط مخالفة بذلك شرعتها ، بعد أن تبين لها أنه ضروري للرجل والمرأة معاً ، وأعلنت استقلال المرأة بملكيتها كالإسلام ! أما تعدد الزوجات فلم تسمح به

والشائع في أوربا اليوم هو الزواج المدني ، والتحرر السريع من القيود الدينية المسيحية فيما يختص بالمرأة وعلاقتها بالرجل . فالطلاق مباح ، والزواج العرفي معترف به وبآثاره وبما يترتب على عشرة السوء ! وبالجملة قد تخلصت المرأة مما تقيدها به ديانتها ، وساعدها الرجل على ذلك ، وحصلت على حرية واسعة بلغت حد الإباحة ، وعلى احترام كبير وصل إلى درجة التقديس ، لا لأنها مخلوق ضعيف يستحق الرعاية والتنعم والصيانة ، بل لأنها مخلوق لطيف ، مؤنس ، رشيق ، يفوح منه عبير العطور ، وينشر في مجالسه السحر المذاب الحلو ، وأشياء أخرى تدل عليها الآثام العميقة التي كانت تسبح فيها أوربا قبل هذه الحرب ، والفضائح التي كانت تزكم الأنوف !

المرأة في الشريعة الإسلامية

ظل الناس في بداوة الجاهلية الأولى ضاربين ، وفي غمرة الشهوات الهمجية غارقين ، وظلت المرأة تعاني مرارة الذل وقسوة الحيف والاستعباد حتى جاء (منقذ المرأة ومحررها) ، محمد النبي العربي بكتاب سماوي يقول : « ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف ، وللرجال عليهن درجة » ؛ فكانت هذه الآية الكريمة الوثيقة القانونية الأولى التي تعترف بإنسانية المرأة ، وحريتها ، وحقها في الحياة ، ومساواتها للرجل مساواة نبيلة أبية لا فضل فيها لمخلوق . ولقد فصّل الإسلام حقوق المرأة تفصيلاً دقيقاً بديعاً ، وتغلغل في صميم حياتها حتى أنه عالج أصغر هواجسها ، وأتفه شؤونها ، وتناول أدق وأحرج أسرارها . فهو قد شمل حقوق المرأة بوصفها بنتاً وزوجاً وأماً وأختاً ، وكذلك بوصفها عضواً في المجتمع الإنساني ؛ وفيما يلي موجز ذلك :

(١) أنظر كتاب « المرأة الحديثة وكيف نسوسها » تعريب الأستاذ عبد الله حسين المحامي — ص ١٩

٢ — أوجب الإسلام للبنت النفقة شرعاً فى حياة أبيها حتى تتزوج ، وليس له أن يلزمها طلب الرزق كالابن . وإذا ما تزوجت ثم طلقت فعادت إلى بيت أبيها عادت نفقتها عليه بعد انتهاء مدة نفقتها الزوجية . وقد قررت الشريعة ذلك حماية للبنت من السقوط فى حمأة الرذيلة إذا أمسك عنها أبوها أو ألزمها طلب الرزق

٣ — جعل الإسلام رضا البنت عند بلوغها سن الرشد شرطاً لصحة العقد عليها . وليس لمخلوق كائن من كان أن يكرهها على الزواج بمن لا تريد . ولنا فى رسول الله أسوة حسنة ؛ فقد كان إذا أراد أن يزوّج امرأة يأتيها من وراء حجاب فيقول لها : « يا بنيّة ، إن فلاناً خطبك فإن كرهته فقولى (لا) فإنه لا يستحى أحد أن يقول (لا) ، وإن أحببت فإن سكوتك إقرار » . وهذا الحق الطبيعى الرائع الذى مُنحته المرأة المسلمة فى القرن السابع للميلاد حُرمته المرأة الأوربية حتى القرن السادس عشر !

٤ — وقد أراد الرسول (ص) أن يدفع الناس إلى الاعتناء ببناتهم بعد أن حرّم الله وأدهن ، وأعطاهن حق الحياة المقرر للرجل فقال : من كانت له بنت جعلها الله له ستراً من النار ، ومن كانت عنده ابنتان أدخله الله الجنة بهما .

٥ — وكان بعض الرجال يسيئون معاملة زوجاتهم ، ويمتنع الزوج الكاره زوجته عن تطليقها حتى تفتدى نفسها بمهرها ، فنزلت الآية الكريمة (فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان) ؛ وقوله : (هن لباس لكم ، وأنتم لباس لهن) ؛ وقوله : (هو الذى خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة) ؛ وجاء فى أخبار الرسول أنه قال : (ألا إن لكم على نسائكم حقاً ، ولنسائكم عليكم حق . أما حقكم على نسائكم فأن لا يوطئن فراشكم من تكرهون ، ولا يأذنّ فى بيوتكم لمن تكرهون ، ولا يأتين بفاحشة ، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تعضلوهن وتهجروهن فى المضاجع) ؛ وقال : (حق المرأة على الزوج أن يطعمها إذا طعم ، ويكسوها إذا اكتسى ، ولا يضرب الوجه ، ولا يقبّح ، ولا يهجر إلا فى البيت) ؛ وقال : (عليكم باللطف والرفق بنسائكم : لا تظلموهن ، ولا تضيقوا عليهن ، فإن الله تعالى يغضب للمرأة إذا ظُلمت كما يغضب لليتيم) . وفى ذلك كله تبين روح الآداب الزوجية التى يبثها الإسلام فى تعاليمه ، وينزلها الله تعالى على لسان نبيه الكريم ، وفى تصرفاته ، وقدوته لعشيرته ، وبنى قومه الذين حكموا الدنيا ودوخوا العالمين عند ما كان الرجال يتقون الله فى نسائهم ، وكانت الأسرة الإسلامية منبع سرور وشهامة

وإن من آداب الإسلام العائلية لما يذهب إلى أبعد من هذه الحدود ، فقد روى أنه جاءت إلى عمر بن الخطاب امرأة قالت : إن زوجى يقوم الليل ويصوم النهار . فقال لها عمر : لقد أحسنت الثناء على زوجك ! فقال كعب بن سوار الجالس بجواره : بل لقد شكته ! تزعم أن ليس لها من وقت زوجها نصيب . قال عمر : فإذ قد فهمت ذلك فاقض بينهما — فقضى . ولو تدبرنا هذه اللفتة الإسلامية العابرة لوجدناها ترمز إلى إشكال عريق فى حياة المرأة ومصدر سوء تفاهم مزمن فى حياة كثير من الأسر !

وإذا كان المصلحون الاجتماعيون فى أوربا وأمريكا لم يهتدوا إلى الطريق الأمثل لفض المنازعات الزوجية إلا فى القرن الحالى ، فقد أشار الإسلام إلى ذلك فى القرن السابع . فقد قال سيدنا عمر بن الخطاب مخاطباً الأزواج : « إذا لم يفد المرأة الوعظ والهجر والضرب (ولن يضرب خياركم — وفى هذا معنى الحظر لشىء أباحه الله لضرورة قاسية وبشروط حتى لا يساء استعماله) عمد الرجل إلى التحكيم ، وهو أن يؤلف « مجلساً » من أهله وأهلها فيعرض كل من الزوجين ما يشكوه من الآخر ، فإن تمرد المحكوم عليه منهما فرقوا بينهما بالطلاق وهو آخر أنواع التأديب »

(البقية فى العدد القادم) محمد عبد الرحيم عنبر

حكم فى القضية ٦٦٥ سنة ١٩٤١ عسكرية بنى سويف بتغريم سيد عبد المطلب سالم من الزرابي ثلاثة قرش صاغ لأنه باع أذرة بأزيد من التسعيرة

بين موسيه وخالد الكاتب

للأستاذ صلاح الدين المنجد

أذكر أني قرأت منذ شهور بمداد مقالاً ذكر فيه صاحبه أن الشاعر الفرنسي «موسّيه» كان يُشابه خالداً الكاتب في بكائه وألمه وهواه، وأن من الحق أن يسمّى خالد «موسّيه الشرق»!

وقول كهذا القول يطوى في ثناياه من التسرّع في الحكم والجهل في المقايسة النصيب الكبير؛ فليس من الصحيح إقامة الموازنات بصلة هزيلة أو نسبة ضعيفة، وليس من العلم إطلاق الألقاب بدون حذر أو أناة

لقد أحبّ «موسّيه» وأحبّ «خالد»، وبكى موسّيه وبكى خالد؛ فكانا في الحب مختلفَيْن، وفي البكاء متباينَيْن. أما الأول فقد بكى وتألم حتى سمى شاعر الألم. وكان الدافع إلى ذلك حبٌّ مفجّع وقلبٌ محطّم. وكان شاباً ناعماً يفوق لداته بالرشاقة والأناقة والنبوغ. فلما أحبّ «جورج صاند» غرّد بحبها في أشعاره وملأ به أناشيده وأغانيه. ثم حملها إلى إيطالية بلد الجمال والفن ليقضيا حياة حلوة كالعسل، رقّاقة كالنسيم، ويتمتعا بالجمال البارع والحب الوليد. على أنها تركته بعد قليل وتبعت «باجيلّو» الطبيب الإيطالي. وكأنها كانت كالفراشة النشوى يروقها رشف الرحيق من كل زهرة! فثار موسيه لما رأى إعراضها وهمّ أن يقتل الحبيبة والطبيب معاً، ولكنه فضل البكاء على الجريمة، ورحل عن «فينيسيا» باليأس والخيبة؛ فهام في رباع أوربة ثم عاد إلى فرانسة وأخرج للناس آيات رائعات، غنى فيها بأشعار رقاق من السهل الممتنع، آلامه المبرحات وحبه الجريح، ويأسه الداجي، وإخفاقه المر. والحق أن موسيه كان بارعاً في تصوير ذلك، لأنه كان صادقاً، والصدق يؤثر في القلب الشاعر ويطربه؛ ولأن آلامه ويأسه وإخفاقه عواطف، تجدها قد لامست كل قلب، وأقرحت كل كبد، ولذلك يشعر المرء أن في أشعار موسيه ترجماناً لما يعتلج في حنايا ضلوعه. ولقد كان شاعرنا إذا وصف ألمه وذكر المرابع التي رآها والأحوال التي صادفها واليأس الذي لقيه برع وأجاد. ولقد سما في وصفه لحبيبته (في ليلة تشرين) ففي هذه القصيدة تجد صورة أخاذة للحبيبة الشهوانة ذات العينين السوداوين. المطفئ للحب، المتأبّي للقبل، التي لا تفي لحبيب، ولا تقنع بحبيب. ولعل هذا آت عن فرط حسها وفرط شاعريتها وسموها وراء لذتها التي خلقت لها وأغوت الناس بها

على أن موسيه قد اتخذ من بكائه وألمه وسيلة للتعليم كما أرى، فجاء طرف من شعره تعليمياً Didactique أبان فيه عن ضرورة الألم وأثره في النفس، ومحاسنه التي لا تنفد ومزاياه التي تهذب الروح وترهف الحس. يقول: «إن الرجل صانع والألم معلمه. والمرء لا يعرف نفسه إلا إذا تألم؛ ولا شيء كالألم يجعلنا عظماء ذوي شأن». ثم يدعو إلى الألم ويبرع في الدعاوة له وتزيينه للناس. ويقولون إن أهل عصره كانوا يسيغون أشباه هذه الأقوال، ويعجبون بمن يذرف الدمع ويصعد الحسرات، وينظرون إلى الذين يقاسون آلام الحب وأسقام القلب نظرة إعجاب؛ بل كانوا يشتهون ذلك. فمن عانى الهيام والتحنان والسهر؛ والبكاء وما يدعو إليه الهوى فقد امتاز عن غيره بكثير

ولقد كان فلاسفة يونان الأقدمين ينصحون للفتى إذا سألهم النصح «أن اعرف نفسك بنفسك» وكانوا يحسبون أن السعادة الكبرى في هذه الحروف الثلاثة. ثم تساءلوا: كيف يعرف المرء نفسه؟ فركب كلٌّ مركباً؛ أما موسّيه فقال «ينبغي لك أن تتألم كي تدرك ما تريد، لأن المرء يعرف نفسه إذا تألم» وهو في كلامه هذا ينطق عن تجربة، ويعتقد أنه عرف نفسه وعبقريتها، لما أدمى الحب قلبه فتألم. وعندئذ علا صوت قلبه الشجي. وصوت القلب كما يقول يصل وحده إلى القلب، فهو يود أن يدع قلبه يتكلم دائماً في كل حال. لأن على الشاعر أن يصغي إلى قلبه ويدع عقله، وأن يبتغي رضا القلب قبل مرضات الناس. والحب إذا تفجر الألم من القلب جعله فلاباً للمصاعب، عزاماً في المصائب، لأن الألم رمز القوة وهو سبيل الخلود. والخير الفرد الذي بقي لنا

في الدنيا هو تذرافنا الدمع في بعض الأحايين

أفيكون حال خالد كحال موسّيه ؟

لا جرم أن ما نعلمه من حياة موسيه أوفر مما نعلمه عن حياة خالد . لا شك أن كلا أحب وكلا بكى ، ولكن شتان ما بين البكائين . ولقد ذكروا أن خالداً كان كاتباً في الجيش ، وأنه كان يهوى جارية لبعض الوجوه ببغداد فلم يقدر عليها ، وأن محمد بن عبد الملك ولاه الإعطاء في الثغور ، فخرج إليها ، فسمع في طريقه منشداً ينشد ومغنية تغني :

من كان ذا شجن بالشأم يطلبه
ففي سوى الشأم أمسى الأهل والشجن

فبكى حتى سقط على وجهه مغشياً عليه ؛ ثم أفاق مختلطاً واتصل ووسوس . أفيكون سبب بكائه وتحيبه هواه لهذه الجارية أم هناك سبب آخر ؟ يقول صاحب الأغاني إن خالداً كان مغرماً بالمرد ينفق عليهم كل ما يفيد ، وأنه هوى غلاماً يقال له عبد الله كان أبو تمام يهواه ، فتهاجيا بسببه وأنه وسوس على أثر ذلك

وهنا نتساءل : « هل اتخذ خالد من بكائه وألمه ما اتخذه موسّيه ؟ »

لا جرم أن خالداً لم يذهب مذهب موسّيه في بكائه وألمه ، ولم يفطن للألم وأثره في النفس ، ولم يبرع في تصوير الألم براعة موسّيه ، ولم تكن في شعره تلك الصفة الإنسانية التي تجدها عند موسيه . فقد تجد بعض التكلف في العواطف والغلو في المعاني لديه ؛ على أنه تفنن في وصف الدمع ، وشعره فيه يعذب ويرق . ولا شك أنه الشاعر الفرد الذي بلغ في وصف الدمع ما لم يبلغه أحد من شعرائنا ، وهذا ما يمتاز به من موسيه

ويحدثنا خالد في ديوانه أنه أصبح دَنِفاً هائماً بمن صارمه واحتجب عنه ، فبكى ؛ وجعل الدمع مداداً يكتب به على خدّه ما في فؤاده !

ثم طلب من الحبيب أن يفهم معاني دمعه . فلما أعرض عنه هواه وفقد الراحة ، لجّ في تذراف الدمع حتى تقرحت عيناه وطلبتا العذر منه ، فلم يعذرهما لأن قلبه لا يعذره ولا يشفق عليه

ولقد كان إذا مرض فملّه عائدوه ونأى عنه طبيبه ، دعا الدموع فهي مطيعة له ، تسرع إليه وتجيبه . وهو ينصح لمن كان هذا شأنه أن يفعل ما فعله . وإذا أنكر الحبيب حبه ودنفه فهو يتخذ الدمع شفيعاً شهيداً . وما زال يبكي حتى كاد يعشب خده :

ولو أن خداً كان من فيض عبرة
يُرى معشباً لاخضرّ خدّي فأعشبا

كأن ربيع الزهر بين مدامعي ... بما اخضل فيه من ضنى وتصببا
على أنني لم أبك إلا مودعاً ... بقية نفس ودّعتني لتذهبا

وما زال هكذا حتى تخاصمت عينه وقلبه :

القلبُ يحسد عيني لذة النظر ... والعينُ تحسد قلبي لذة الفكر
يقول قلبي لعيني كلما نظرتْ : ... كم تنظرين ؟ رماك الله بالسهر
العين تورثه هماً فتشغله ... والقلب بالدمع ينهاها عن النظر
هذان خصمان لا أرضى بحكمهما ... فاحكم فديتك بين العين والبصر

فإذا نفد دمعه نادى :

نفدتْ عبرتي فهل ... عبرةٌ أستعيرها ؟

* * *

فأنت ترى من هذه اللمحة الوجيزة أن الشاعرين مختلفان في حبهما وألمهما وبكائهما ، وأن لكل مزايا . ولعلّي أعود إلى خالد فأوسّع الكلام عنه

(دمشق) صلاح الدين المنجد

التفسير الكيميائي لأعمال العقل والحياة

للأستاذ حسين الظريفي

إن الحقائق العلمية التي أسفرت عنها بحوث الكيمياء الحيوية قد دلت على ارتباط مظاهر العقل والحياة بما يحمله الدم من مواد

قال أحد علماء علم الأحياء : « كنت أرتاب قبلاً في أن البحوث الكيميائية الحيوية والكيميائية النفسية تستطيع أن تسفر عن رأي من الآراء في ظاهرة ليست من ظاهرات الطبيعة والكيمياء ، إلا أنني الآن أرى غير ذلك . ولأضرب على ذلك مثلاً غريباً بما قد يستطيعه بعض العلماء في المستقبل من القطع بأن نقصاً في إحدى مركبات الفسفور ، وزيادة في فعل التأكسد في ناحية معينة من قشرة الدماغ ، يصحبان دائماً العبقرية في الشعر

ولندلل على حقيقة عنوان المقال ببعض آثار ما تفعله الغدد الصماء ؛ فقد ظهر أن هرمون البرولاكتين ، وهو مما تصنعه وتدفعه الغدة النخامية في فصها الأمامي ، ذو أثر خاص عند الإناث ، يدل على أن حب الأمومة قائم على أصل فزيولوجي ممثل بشكل مادة كيميائية قد تكون مؤلفة من جزئيات زلالية كبيرة

وعند ما يبلغ أحدنا دور المراهقة ، تبدأ الغدد التناسلية بإفراز هرموناتها الخاصة ، تلك التي تبدو على أثرها أعراض الصفات الجنسية الثانوية ، مثل ظهور الشعر في الوجه وتضخم الصوت عند الذكور ، ونمو الحوض والصدر وترسب الشحم تحت الجلد عند الإناث . فإذا كان في الغرائز الجنسية ما يبعثها على التهيج والغليان ، فإن الطبيعة تسلك في تهدئة هذه الغرائز طريقاً كيميائياً يحدثه لها هرمون البرولاكتين . فقد ظهر أن من مزاياه عرقلة مغالبة الغدد التناسلية عند ما تكون بها حاجة إلى التهدئة

على أن هذه الكتلة النسيجية الحمراء المتكنة في منخفض عند قاعدة الجمجمة التي لا يزيد وزنها عن نصف غرام ولا يربو حجمها على حجم حمصة كبيرة — وأعني بها الغدة النخامية — تعتبر الغدة الحاكمة في الجسم وإليها مرد الفضل في أعمال النمو البيولوجية

كذلك ظهر أن هرمون الثيروكسين ، وهو مما تفرزه الغدة الدرقية ، يقوم بأعمال الهدم والبناء في جسم الإنسان ، وإذا قل مقداره عن حده المعتدل تعرض الإنسان للبله وقصر القامة ؛ وأن بتأثير هرمون هذه الغدة يتميز الأذكياء عن الأغبياء والأقوياء عن الضعفاء بالرغم من أن ما يوجد منه في الجسم مقدار يسير

أما هرمون الأدرنالين ، وهو مما يفرزه الكظران ، فذو علاقة كبيرة بالتعبير عن الانفعالات القوية ، ذلك أنه يؤثر في الشجاع فيقدم وفي الجبان فيحجم ، ولهذا تزداد إفراز هذه المادة إذا تعرض الإنسان إلى خطر ، وبمقدار هذه الزيادة تزداد قوته العادية فيندفع إلى القتال والاستبسال أو إلى التعلق بأذيال الفرار

وقد وجد الأطباء أن مركز الانفعال كائن في جزء من مؤخرة الدماغ ، وأن بينه وبين الكظرين صلة وثيقة ، فإذا وقف الإنسان في موقف أغضبه أو أخافه ، فإن مركز انفعاله في الدماغ يرسل في الجهاز العصبي سلسلة من الرسائل إلى الكظرين فتحملهما على إفراز هرمون الأدرنالين لإيصاله عن طريق الدم إلى الكبد ، حتى إذا وصله حمله على إطلاق بعض السكر المخزون فيه لإيجاد طاقة جديدة ، يدفع بها المرء عنه الخطر بالمقاتلة أو الهزيمة

إن هذه الحقائق العلمية تذكرني بما كتبه أحد الأساتذة في موضوع الرقة في النفس والذهاب إلى أنها من مظاهر القوة دون أن يقوم هذا التقرير على غير مجرد التفكير والأدلاء بالأدلة البيانية . والواقع أن رقة النفس ككل ظاهرة أخرى إنما تقوم على أصول فزيولوجية تبعثها بعض المواد الكيميائية ، وليست هي وليدة ضعف أو قوة ، وقد نجد قوى النفس أو الجسم قاسياً أو رقيقاً

إن جريمة القتل وهى أفظع ما يجره الإنسان على غيره ، قد تصدر عن رجل لم تمهد فيه القسوة أو الغلظة ، ذلك لأن الجانى لا يقوم بالجريمة مندفعاً بعامل من دماغه ، وإنما هى شىء يقع مما وراء الدماغ ، حيث يقوم الخلل فى توازن ما تفرزه الغدد الصماء ، حتى لقد قال أحد العلماء :

إن غدد القاتل هى التى تسحب المسدس وتسدده نحو القتيل وتطلق عليه النار فترديه ، وأن غدد السارق هى التى تنقل قدميه إلى مكان الجريمة ، وهى التى ترفع يديه لأخذ مال الغير ، وهى التى تدفع به إلى التوارى والهرب .

فالإنسان من حيث تركيبه الكيميائى يقوم بالإجرام كما يقوم بغيره . ومظاهر الرقة ولطف المزاج قد يكون فى الجانى وقد يكون فى غيره ، بالنظر إلى قيام أو عدم قيام المواد الكيميائية التى ينبعث عنها ذلك المظهر .

وما تقدم فى صدر هذا المقال من قرض الشعر لا يخرج عن حدود الواقع ، وقد ضربتُ لقريحة الشاعر مثلاً بالبطارية الكهربائية ، فتأليف القصيدة يستهلك من قوى القريحة ما تحتاج فيه إلى أمد تستطيع به إعادة خزن ما فقد ، شأنها فى ذلك شأن البطارية الكهربائية فإنها تحتاج إلى الشحن المستديم بقدر ما تطلق من كهرباء .

هذا قانون طبعى يجرى حكمه على قريحة الشاعر كما تنفذ كلمته على البطارية الكهربائية سواء بسواء . والنتيجة الحتمية لهذه الخاصة الآلية ، هى أن الشاعر إذا أجهد ذهنه فى قرض الشعر غير مبال بالاستهلاك دون التعويض ، انحدر شعره إلى هوة الضعف فى معانيه ومبانيه ، كشأن كل مصباح يوصل بتيار بطارية لا يأتيها المدد بعد أن تنفد .

إن عمل الفنان ، ورجل الصناعة ، وجناية الجانى ، كل أولئك آثار ما تنفعل به مجاميع المواد الكيميائية ، ولكن مجال هذه المواد لم يزل البحث فيه عند بداية طريق طويلة ، ومتى يصل البحث فيه إلى الذروة ، يظهر كل شىء عند هذه المواد .

(بغداد) صبري الطرابلسي المحامي

مدرسة . . .

للأستاذ أحمد الطاهر

سجا الليل وغشى المدينة ظلام دامس ، وكنت قد اخترت لليلتى كتباً أخلو إليها كما يختار الأصدقاء : قليلة العدد كثيرة الوفاء . ولكننى برمت بها وبمجلسى ، فطويت أجنحتها وعمدت إلى المصباح فأغمضت عينه ، واندفعت إلى شرفة بمنزلى ففتحت بابها وخلوت إلى السماء ؛ فإذا القمر يطل منها على الأرض ، ويسكب عليها فيضاً سخياً من ضوئه الوهاج . ولا يستطيع أولو الأمر فى الحرب أن يرقوا إليه ، فيسدلوا عليه حجاباً أو ينذروه عقاباً . وقلت فى نفسى ما يقوله الناس فى هذه الأيام : وا حسرتاه ! كنا نجد فى ضوء القمر لذة ومتاعاً ، حين كان السلم يبسط رواقه على العالمين ، واليوم نوجس منه خيفة وارتياعاً ، حين اتخذت الطائرات ضوءه سلماً تهبط به على الآمنين .

وما كادت الحرب تخطر ببالى حتى دفعتها عنى دفعاً . وأرسلت للبصر إلى السماء ، فرأيت سحابة باسطة الذراعين تجرر أذيالها تسعى إلى القمر فى تؤدة وونًى ؛ ثم تبسط يدها على وجهه فيخبو ضوؤه قليلاً ؛ ثم تنداح فتحجب أكثر هذا الضوء ؛ ثم تنجاب عنه فإذا هو خارج من غمرته منبسط الأسارير كما عهدته . وإذا السحابة تخلفه وراءها وتمضى وهو باسم بسمة الحليم حين يمتحن فى حلمه ، وهى مطمئنة اطمئنان القوى حين يفوز بخصمه

سبحانك اللهم ! وغفرانك ! حسبنا أنا حرمنا نعمة الضياء بهذه الحرب فبسطت لنا فى سمائك كتاباً فيه سطور من نور . وحسبنا أننا قطعنا الأسباب على كل مبعث للضياء بما أسدلنا من سجف وأستار ؛ وإذا ضياء سمائك لا يحجبه حاجب ولا يغمه ستار !

ترى هل أستطيع أن أقرأ فى هذا الكتاب المبسوط فى السماء ؟ هل من سبيل إلى فهم بيان السماء ؟ هل أفوز من القمر والسحاب والسماء والنجوم بحديث اطلع به على الناس مغتبطاً كما يزهو الصحفى حين يفوز بحديث زعيم أو عظيم مع ما بين الحديثين من تفاوت ؟

ودار بخاطرى أننا أنشأنا مدارس لتعليم اللغات الحية وعكفنا على دراستها حتى قتلناها ، وأنشأنا معاهد لتعليم اللغات الميتة ، وعكفنا على ذكرها حتى أحييناها ، واحتدم بيننا الجدل فيما نفعل حتى اختلط الشك باليقين ، وانتصر قوم لتركى مبارك وتشيع قوم لأحمد أمين ، وما فى ثبت تلك المدارس والمعاهد مدرسة لتعليم لغة الطبيعة ولا « حصة » لدراسة لسان السماء والأرض الذى تنطق به كل المخلوقات ولا يفهمه إلا الأقلون ؟ !

وقدرت أن من الخير لنا أن نهيب بالشعراء والأدباء ليدلوا الناس على هذه المدرسة ويبسطوا لهم نظامها ونهج الدراسة فيها ليقبلوا على دراسة لغة الطبيعة وتخصص أسرارها بالبحث ، وقدرت أن الإقبال على هذه المدرسة رهن بما يثار حولها من دعاوة وإعلان . ولم لا نحيط الفكرة بالدعاوة والإعلان ليقبل الناس عليها ونحن فى هذا الزمان نحيط الباطل بالدعاوة والإعلان حتى نحسبه حقاً ، ونبهرج الكذب والمين حتى يبدو لنا صدقاً ، واستوت لى فى هذا التفكير صورة (إعلان) عن هذه المدرسة فإذا هى كما ترى :

مدرسة تعليم اللغة الطبيعية

المدرسة مؤسسة منذ خلق الله الكون وجعلها تذكرة وعبرة لأولى الألباب . مواد الدراسة فيها لا يحصيها حصر ولا يحيط بها بيان ، يأخذ منها الطلاب بقدر ما تسع جهودهم وتحمل أفهامهم : منها السماء ونجومها ، والسحب وأمطارها ورعودها وبروقها ، والشمس والقمر ، واليابس والماء ، والجبل والسهل ، والشجر والثمر ، والرياح والعواصف ، والرمل والحصى ، وكل ما تفزع إليه الأبصار البصيرة حين تضيق بها سبل الحياة فتلتمس فى جمالها النجاة ، وحين تحتبس النفس فى ظلمة المادة فتلتمس الفرج فى نور الطبيعة . ويدرس بالمدرسة الإنسان وطبائعه ، والحيوان وخصائصه ، كما تدرس العلل والأمراض فى مدارس الطب وصحة الأبدان . والدراسة فى هذه المدرسة ليلية حتى دراسة الشمس ! وقد اختير الليل لأن سواده ينم عن أدق أسرار الطبيعة كما ينم سواد العيون عن أسرار القلوب . والطبيعة خفِرَة رقيقة يؤذيها الأضواء الوهاجة ، وتؤلمها الأصوات الصاخبة ، فلا تبدو فى أنصع أثوابها إلا فى سواد الليل ، ولا يشرق وجهها إلا بعد غروب الشمس ، ولا تستيقظ إلا حين ينام الناس ، ولا تنطق إلا حين يصمت كل لسان . ويشترط للانتظام بهذه المدرسة أن يقدم الطالب شهادة بأنه قد مارس الجمال والحب والفن فلم يفرق بين ثلاثتها ، وذاق لذاتها وآلامها وحلاوتها ومرارتها . ولا تقوم وثيقة الزواج مقام هذه الشهادة . وأن يقدم شهادة موقعاً عليها من اثنين من كبار علماء الأرض يعترف فيها معهما بأن مبلغ علمه وعلمهما أن الثلاثة

لا يعلمون شيئاً . والمدرسة تمد الطالب للعلم بلغة الطبيعة ، وعليه بعد هذا أن يناجيها بلسانها فيفهم أسرارها ويستودعها أسراره ويقدس جمالها ويحدث عن جلالها . وأنه لوفق سعيد إن استطاع أن يمضي معها في سبيل . »

* * *

وبعد فالشاعر أو الناثر الذي يفهم لغة الطبيعة ويتمرس بها لن يكون أدبه غثاً ولا تافهاً ، ولن يجد فيما يخرج للناس أو لنفسه من شعر أو نثر عناء ولا عنتاً إلا بمقدار ما يختار من الألفاظ جزلها وما يسبغ على أسلوبه من طلاوة . ذلك بأنه في إبراز المعاني والأخيلة والتشبيهات لا يمتح من بئر عميقة ، ولا يرحل إلى مكان سحيق ، إنما يتناول ذلك كله مما انطبع في نفسه ، وأوحى به حسه ، وانبجس من وجدانه ، يجريه في قصبة يراعه فإذا هو شعر أو نثر يتسلسل تسلسل ماء النهر

هـذا هو الأدب الذي توحي به الطبيعة إن صادفت نفساً صفية وإحساساً دقيقاً ووجداناً سامياً وخاطراً سريعاً . تجده أدباً حياً ناطقاً يصدر طواعية لإحساس موجود وشعور قائم بالنفس ؛ ولا مراء في أن انطباع الصور في نفس الأديب شاعراً كان أم ناثراً هو الوسيلة التي تطوع له جيد الشعر أو النثر ، وذلك هو ما يعبرون عنه بهضم المعاني ، يقصدون بالتعبير أن يكون المعنى قد استقر في « بطن الشاعر » وجرى منه مجرى الدم ، وسرى فيه سريان الروح ، فلا يصدر إلا عما انطوى عليه إحساسه وقام بنفسه . وإنه ليجري مجرى هذا القول ما نراه من تأثر شاعر أو ناثر بشعر شاعر قبله أو ناثر تقدمه ، إن كان المتأخر قد بذل جهداً في دراسة أدب المتقدم ، وتقفى أثره وترسم خطاه . هنا لا نلبث أن نرى في شعر المتأخر وأدبه روح المتقدم ونفَسَه . وهنا يخطئ كثير من الناس فيحكمون على المتأخر بالسرقة ؛ وإنه لتجَنٍّ لا مسوغ له ، وتعسف ليس له ما يجيزه . خـذ مثلاً شعراء الأندلس في القرن الرابع الهجري ، ترى أنهم أعجبوا بطريقة المتنبي ومذهبه وحاولوا السير على نهجه الذي ابتدع ؛ ولم يكن ذلك بدعاً ، فإن أهل المغرب إذ ذاك قد أغرموا بالتشبه بفحول الشعراء والأدباء من أهل المشرق ؛ وإنك لواجد روح المتنبي ظاهرة بارزة في قول ابن هانئ الأندلسي :

فجزعتُ حتى ليس بي جزع وحذرتُ حتى ليس بي حذر

ومن ذا الذي لا يلمس المتنبي في قول ابن زيدون :

سرّان في خاطر الظلماء يكتمنا حتى يكاد لسان الصبح يفشينا

وهاك ابن زيدون هذا يقول في رسالته الهزلية : وغناك مسألة ، ودينك زندقة ، وعلمك مخرقة . ألا يذكرنا هذا بما قاله المتنبي في ابن كيغلغ في ميميته التي أولها : لهوى النفوس سريرة لا تعلم ؟ ولندع المتنبي فقد تقفى آثاره كل من جاء بعده فتأثر به بعضهم وسطا عليه البعض ؛ ولننظر إلى البحتري يصف بركة المتوكل :

إذا علتها الصبا أبدت لها حبكا مثل الجواشن مصقولاً حواشيها

ولنضع إلى جوار هذا البيت بيتاً لابن حمديس يصف بركة المنصور :

وكأنما نسج النسيم لمائه درعاً فقدر سردها تقديرا

إنّا لنجد الجوهر في البيتين واحداً ، ولا يقبل بأي حال أن يحمل هذا محمل السرقة ، وإنما هو تفاعل نشأ من امتزاج شعر الشاعر المتقدم بنفس الشاعر المتأخر

على هذا النحو من التفاعل يكون أثر الطبيعة في شعر الشاعر أو نثر الكاتب الذي يفهم لغة الطبيعة ويتأثر بصورها ويؤخذ بمظاهرها ، ويفتن بجمالها ، ويؤمن بجلالها : تفيض عليه غيثاً دافقاً ، وتوحي إليه وحياً صادقاً

وكذلك يكون الشعراء والأدباء

« الإسكندرية » الصاغ أحمد الطاهر

---

٣ - قيمة الحرية

للصحافي العالمي ويكهام ستيد
بقلم الأستاذ زين العابدين جمعة المحامي

(تابع)

تصبح مدارك الحرية، اقتصادية كانت أو سياسية، وهي آراء نسبية أي خاضعة لمقتضيات الظروف. والعلاقة الصحيحة القائمة بين الحرية الاقتصادية والحرية السياسية في وقت معين وفي ظروف خاصة هي عندي موضوع يجب أن يعرض في حينه للبحث الحر والدراسة الصحيحة والاستقراء السليم، وليست بتلك المذاهب السياسية أو الاقتصادية الموضوعة. فأصحاب المبدأ الذي نادى بحرية التجارة ورفع القيود الجركية من ناحية، وأتباع العقيدة المرقصية من ناحية أخرى، مسئولون مباشرة أو من طريق غير مباشر عما أصاب الفلسفة الحرة من كسوف تلك الفلسفة التي كانت دعامة النظر الحر في القرن التاسع عشر. ولو قدر لدعاة الاشتراكية أن يقفوا اليوم وقد تملكهم العجب وحاروا من أمر ما يرونه من مقاومة الحكومات الاستبدادية لأحكام العقيدة المرقصية في روسيا وإكراه الناس على اعتناقها، فإنهم يحسنون صنعاً لو أنعموا في الأمر النظر ليعرفوا إلى أي حد قد يتكشف تحقير المرقصية والاشتراكية لمبادئ الحرية السياسية عن دواعي الشرور التي ألموا لها وبكوا عليها. إن ديكتاتورية الطبقات الدنيا ومذهب صراع الطبقات ليتناقضان مع النظر الفلسفي الصائب مثلما تتناقض معه عقائد الفاشية والنازية؛ إذ لا يتهيأ للناس مع الحكومات الاستبدادية التي تتولى السلطان باسم الطبقات الدنيا أو الطبقات المجردة من الملكية من كفالة العيش والاطمئنان للحياة أكثر مما يتهيأ لهم مع الحكومات الاستبدادية التي تنهض بالحكم على حساب جماعات الشعب الأخرى التي قد يكون لديها من حطام الدنيا ما يفرض عليها أن تفقده ويعز عليها أن تتخلى عنه أو تفقده. ولقد كان هتلر في عبارات قليلة من كتابه (كفاحي) أكثر فطنة وأبعد نظراً منه في تلك العبارات التي عبر بها عن مخاوف الطبقة المتوسطة الضعيفة من أن ترجع القهقرى فيلقى بها في غمار الطبقة الدنيا من الأجراء البائسين التي عملت على الإفلات من التردي في غمرتها. وما أصابه هتلر من النظر الألمعي الذي هداه إلى أن يجعل حركة «الاشتراكية الوطنية» في وضع يتفق إلى حد ما مع رغبات الطبقة المتوسطة الرقيقة الحال الضعيفة الشأن في ألمانيا، لم يكن في واقع الأمر بأقل مما أصابه مرقص والمرقصيون الاشتراكيون الذين أسسوا ما رسموه من خطة للانقلاب الثوري الناجح على عقيدة قوامها أنه إذا تهيأ للطبقات الدنيا في جميع أنحاء العالم أن تتحد وتظفر من وحدتها بقوة لا تقف أمامها قوة، وبسلطان لا يقهره سلطان، وسعها أن تحطم أغلالها وتحقق آمالها. والفاشية والنازية قد طبعتا العالم بطابع رمى وهما تحسبان أنهما تذودان عن الملكية وتسهران على حمايتها. ولقد أعرب (دون سالفادور دى مادارياجا) عن حقيقة الأمر في أوجز عبارة ممكنة وبما مرن عليه من قوة البيان ودقة الأسلوب بقوله: «ليست الفاشية سوى صورة للشيوعية تراها العين على صفحة ماء يضطرب من الخوف»

وهنا وكما قصدت أن أبينه تتكشف الحقيقة عن أنه لم يكن بدعاً أن ينتظم هذه السلطات الاستبدادية المطلقة معنى واحد، هو أنها لا تحتمل للصحافة حرية، بل لا بد لها أن تقضي عليها؛ وأولئك الرجال الذين لا يتأصل معنى الحرية في أنفسهم نتيجة لشعور سليم وإيمان متين غالب أمرهم أن يضيقوا بحرية الصحافة ذرعاً. إلا أننا من جهة أخرى نجد مجرد التشدق بفضائل الديمقراطية والتمدح بالانضواء تحت لوائها، وهو لا ينهض بديلاً عن الإيمان بالحرية إيماناً صادقاً رشيداً. والحق أن فقر الفكرة السياسية وعقمها في الجماعة والأحزاب القديمة العهد، وفي الأمم التي ما زالت تنعم بحريتها هو من أعظم الشواهد العقلية على ما نكابده من خمول الشأن في زماننا هذا

وما دام الناس قد كتب عليهم أن تستأثر المادة برغباتهم وتملك عليهم عقولهم ومشاعرهم، فلا يعملون إلا لها، ولا يهتفون إلا بها، ويتأصل في معتقداتهم أنهم يعيشون للخبز وللخبز وحده، وما دام أغلب ظنهم أن بيد الاقتصاد السياسي مفاتيح الغيب التي

تتفتح معها جميع الأبواب لتنفذ منها الحكمة الاقتصادية ، فسوف لا تصبح لغة الحرية يوماً ما وهي لغتهم الشعبية ، وسوف لا يتحدثون بها بذلك الأسلوب القوي السليم الذي يجرى على لسان عظماء القادة ممن يقدرون قيمة الحرية حق قدرها ، وإذ يعرفون لها فضلها يؤثرونها لذاتها . ومع ذلك قد تتكشف لهم الحقيقة عن أن أولئك القوم من رعاع الناس المحتقرين ، ومن أعداء البشر من المولعين النهمين ، ومن العمال المستضعفين ، ما برحوا وهم يتمتعون بنصيب كاف من الفطنة والرشد بدركون معه أن اختيار النظم الحرة للهيئات الاجتماعية اختياراً موفقاً صائباً لا يستقر في الأفكار والعقائد التي تنادي بها جماعة الشيوعية الاستبدادية من ناحية اليسار ، والمذاهب والآراء التي تفرضها الهيئات الفاشية والنازية من ناحية اليمين ، بل يجب أن ينهض على المبادئ الحرة المنظمة التي ظلت أعظم ما يصبو إليه النظار ، وتنصب عليه التجارب في بريطانيا رجاء النهوض بمدنية الجنس البشري

***

إننا بحاجة لأن نمعن في تقصي هذا الموضوع والاستزادة من استقرائه ودراسته ما دمنا نترقب ما قد ينتهي إليه من التحكم في حرية الصحافة . وهنا نجد لزاماً علينا أن نتساءل لمَ بلغ تهديدهم للحرية هذا المبلغ الخطير ، ولماذا انتهى إلى هذه الحال المروعة ؟

ولماذا ضيع أمثال هؤلاء الناس العظام من الطليان والألمان حريتهم واستكانوا للذلة وخضعوا للطغيان ؟ ولم يدلنا ظاهر أمرهم على أنهم يفخرون بتلك النظم التي تقضي على كرامة الإنسان وتضيق الخناق على الحرية ؟ ولم نرى في بريطانيا هؤلاء القوم من عظماء الرجال العموميين وأصحاب الصحف الخطيرة الشأن الواسعة السلطان يطأطئون رءوسهم ويطمئنون من تخوتهم أمام دعاة تلك النظم الاستبدادية وقادتها ؟ ولم يتعامون عن تلك الجرائم النكراء التي تنادي بمسئولية قادة تلك النظم وهم إلى ذلك يعيرونهم آذاناً واعية ويمجدون أعمالهم ؟

والجواب على ذلك هو أنه وقتما ينهض في الشعب نظام استبدادي كالشيوعية الروسية ويطبع نفسه بطابع من القوة الغاشمة والعنف المروع ثم يتأتى له بعون من رجال الشرطة الجبابرة القساة المنبثين في كل مكان أن يسحق الحريتين السياسية والشخصية ويحرم على الناس الملكيات الخاصة ، تقف منه النظم الأخرى التي تزعم لنفسها حماية الملكيات الخاصة موقف المعارضة والمناهضة ، ثم لا يكون منها هي الأخرى إلا أن تتخذ من سلاح القوة والعنف ومن رجال البوليس السري عوناً لها ، لا للقضاء على أولئك الرجال وتلك الأحزاب من شيعة الشيوعية فحسب ، بل ولتحطيم سند الحرية وحماتها وممثلي الديمقراطية أيضاً

زين العابدين جمعة

---

١٨ – المصريون المحدثون

شمائلهم وعاداتهم

في النصف الأول من القرن التاسع عشر

تأليف المستشرق الانجليزي ادورد وليم لين

للأستاذ عدلي طاهر نور

تابع الفصل السادس — الحياة المنزلية

جرت العادة أن ينصرف التاجر بعد تناول الفطور مباشرة إلى حانوته أو مخزنه ولا يعود إلى المنزل قبل الأصيل[1] . ولديه هناك الفراغ الكافي للتدخين متى شاء ، وكثيراً ما يدخن حرفاؤه معه ، فيقدم إلى بعضهم شبكه الخاص ، والقهوة يستحضرها من أقرب مقهى . وقد يمضي أغلب يومه في التكلم مع الحرفاء أو مع جيرانه من التجار . والتاجر يقيم صلاته على العموم في دكانه ، ويتناول بعد صلاة الظهر طعاماً خفيفاً مثل طبق من كباب ورغيف من الخبز يحضرهما إليه خادم صغير من المنزل أو من السوق يومياً ، أو بعض الخبز مع الجبن أو المخللات ، أو غير ذلك مما يشتريه من الباعة المتجولين . ويدعو التاجر دائماً الحريف إلى مشاركته الطعام ، وقد يلح في الدعوة . ويحتفظ في دكانه بقلة كبيرة يملأها عند اللزوم سقاء متجول ، ويعود التاجر إلى منزله مساء للعشاء ، وسرعان ما ينام ...

والعادة أن ينام الرجل هو وزوجه في سرير واحد ، إلا أن أفراد الطبقة الموسرة يتخذون غالباً سرراً منفصلة . ويتكون السرير عند متوسطي الحال مما يأتي : حشية[2] طولها حوالي ست أقدام ، وعرضها ثلاث أقدام أو أربع ، توضع على سرير منخفض من جريد النخيل ، ومخدة ليستريح عليها الرأس ، وملاءة تفرش فوق الحشية والمخدة . وغطاء الصيف خفيف ، ويسمى (حراما) ، أما غطاء الشتاء فثليظ محشو بالقطن ويسمى (لحافا) . وقد توضع الحشية على الأرض إذا لم يوجد سرير ، أو توضع اثنتان معاً واحدة فوق الأخرى . وكثيراً ما يكتنفها مسندان من مساند الديوان ؛ والكلة[1] تعلق فوق السرير بأربعة خيوط تشد إلى مسامير تدق في الحائط . ويندر أن يغير المصري ملابسه عند النوم . وفي الشتاء ينام بملابسه العادية جميعها إلا الجبة والملابس الجوخية . أما في الصيف فينامون عراة أو شبه عراة . وينصب السرير شتاء في غرفة صغيرة تسمى (خزنة) وصيفاً في غرفة واسعة . ويطوى فرش السرير نهاراً ويوضع على جانب ، أو في الخزنة السابق ذكرها . وعند اشتداد الحر ينام أغلب الناس على أسطح المنازل أو في (الفسحة) : وهي غرفة لا سقف لها ؛ ولكن تعرضهم للهواء الطلق أثناء الليل يسبب لهم الرمد وأمراضاً أخرى .

وأكثر أنواع الأسرة شيوعاً ما يصنع من جريد النخل ، وهو يجلب البق الذي يكثر كثرة فاحشة في مصر أثناء الصيف مثل كثرة البراغيث في الشتاء ، وقد سبق ذكر هذه الحشرات والبلايا الأخرى التي يتعرض لها المصريون ليلاً ونهاراً[2] . والقمل أكثر هذه الحشرات إثارة للاشمئزاز ؛ ولكن الذي يغير ملابسه الداخلية كل يومين أو ثلاثة أيام قلما تضايقه هذه الحشرة ، وإن لم يكن تجنبها سهلاً دائماً حتى مع النظافة التامة . وإذا كان القمل يضايق فإن من السهل الخلاص منه ، لأنه لا يلصق بالجلد وإنما يوجد على العموم في الثياب . ومن الممكن أن ينظف المنزل من البراغيث بكثرة الغسل والكنس ، وأن يمنع الذباب من الدخول بوضع الشباك على الأبواب والنوافذ ، وإن كانت حلقاتها واسعة ، ولكن من المستحيل أن يطهر المنزل المصري من البق إذا كان أثاثه من الخشب كما هو الحال غالباً

وحياة الخدم الذكور كلها دعة وراحة ما خلا السائس الذي يجب عليه أن يرافق سيده وقت الركوب فيجري أمامه أو بجانبه

(١) سأصف الحوانيت وأخبار التجار في فصل الصناعة
(٢) طراحة

(١) «الناموسية» : وهي تصنع من الموصلي أو الكتان أو الكريب وهي عبارة عن مظلة بطول السرير وعرضه
(٢) في مقدمة الكتاب

وقد يقوم بعمله هذا في أشد الأوقات حراً ولمدة ساعات طويلة دون أن يبدو عليه التعب. ولكل ثرى من أثرياء القاهرة تقريباً بواب يلازم باب المنزل، وعدة خدم ذكور آخرين. وأغلب هؤلاء مصريون. ويستخدم أيضاً النوبيون في القاهرة وفي غيرها من مدن مصر. وكثيراً ما يقوم النوبيون بحراسة الأبواب؛ وهم على العموم أكثر أمانة من الخدم المصريين. وأجرة الخادم تافهة لا تتعدى ريالاً أو ريالين في الشهر، إلا أنه يتداول منحاً كثيرة[1] فيعطى السيد كل خادم في عيد الفطر بعض الملابس الجديدة أو خلعة كاملة من عرى وطربوش وعمامة. وعلى الخادم أن يدبر لنفسه ملابسه السنوية الأخرى ما عدا الحذاء أحياناً. وقد يتناول، علاوة على ما يعطيه السيد، بعض النقود من الضيوف أو من التجار الذين يعاملهم السيد وعلى الأخص عند ما يشترى صفقة كبيرة. وينام الخدم بملابس النهار على الحصر، ويغطون أنفسهم شتاء بدثار[2] أو حرام. وكثيراً ما يرفع الخادم الكلفة مع سيده فيضحك ويمزح معه. وفي بعض الأحوال الأخرى يخضع كل الخضوع ويظهر له كل الاحترام، ويتقبل كل ما يوقعه عليه من العقوبة البدنية بهدوء الأطفال.

ويراعى السيد الخادم العبد أكثر من الخادم الحر؛ ويحيا العبد حياة توافق طبيعته الكسولة. ويمكنه إذا كان غير راض عن عمله أن يجبر سيده على بيعه. وأغلب عبيد مصر يلبسون الملابس العسكرية التركية. وهم على العموم أشد الناس تعصباً في مصر وأكثر تعوداً على إهانة المسيحيين وكل من كان على غير دينهم الذي اعتنقوه دون أن يعرفوا من مبادئه أكثر مما يعرف أطفال العرب الذين لم يمض عليهم في المدارس أكثر من أسبوع. وسأذكر بعض أخبار الجواري في الفصل القادم

ومعرفة أحوال المصريين الحديثين كثيراً ما تجرنا إلى مقارنة عاداتهم المنزلية بعادات الأوربيين في القرون الوسطى؛ وما في هذه المقارنة من مشابهات، تعتبر أكثر تأثيراً مما فيها من مباينات. هذا بالنسبة للرجال؛ أما بالنسبة للنساء فالأمر على العكس الآن وقد أطلت الحديث عن الرجال يجب أن أنتقل إلى الكلام عن الحريم. ولكن يجب أولاً أن أذكر بعض الشيء عن الزواج وحفلاته.

يعتبر المصريون امتناع الرجل عن الزواج بلا مبرر عند بلوغ السن الملائمة مخالفاً للآداب ومسيئاً للسمعة. وقد لقيت أنا نفسي لارتكابي هذه الخطيئة (أقول ذلك حتى لا أذكر ما هو أشد قسوة) ، مضايقات ومكاره كثيرة، واحتملت عتاباً شديداً أثناء زيارتي الأوليين لمصر. فقد بدا لي في المرة الأولى أن أنتقل من المنزل الذي سكنته بعض شهور في شارع كبير من شوارع القاهرة إلى منزل آخر في حي مجاور، وكتبت عقد الإيجار ودفعت العربون، ولكن جاءني وكيل المالك بعد يومين يخبرني أن سكان الحي وأكثرهم أشراف يعترضون على سكنى بينهم لأني أعزب؛ ولكنهم يقبلونني بكل سرور إذا اقتنيت على الأقل جارية تنفي عني عار العزوبة. فأجبته إنني لا أنوي الإقامة بمصر فلا أحب أن أتخذ لي زوجة أو جارية قد يضطرني الرحيل إلى تركها. فأعاد إلى العربون. وساعدني الحظ في حي آخر فلم يعترض على عزوبتي أحد، وإنما [illegible] مني الوعد بعدم السماح لأي شخص يلبس القبعة أن يزورني في الحي. ولكن بعد أن استقر بي المقام أخذ شيخ الحي يحاول إقناعي بوجوب الزواج. ولم يقم وزناً لكل ما أبديته من الحجج التي تمنعني عن الزواج وقال: «تذكر لي أنك تريد ترك مصر بعد سنة أو سنتين. وأن هنا أرملة شابة جميلة تسكن على مقربة منك، ويسرها أن تصبح زوجتك مع رضاها بأن تطلقها حينما تترك البلد. وفي وسعك طبعاً أن تفعل ذلك إذا لم تعجبك.» وقد استطاعت هذه الشابة مراراً أن تجعلني أبصر وجهها الجميل أثناء مروري بالمنزل الذي تسكنه مع أهلها. فقلت لصاحبي إني رأيت وجهها بطريق الصدفة، وإنها آخر امرأة أرغب في الزواج منها في مثل هذه الظروف لتأكدي من أني لا أستطيع طلاقها أو فراقها إذا عشت معها. وقد شق على أن أسكت صديقي الحدوم. لقد ذكرت في المقدمة أن الأعزب أو من لا يقتنى جارية يضطر إلى السكنى في الوكالة إلا إذا كان يعيش مع أهله، ولكن الفرنج الآن يعفون من هذا القيد.

وتبلغ المصريات في سن مبكرة قبل نساء البلدان الباردة. وكثيراً ما يتزوجن في الثانية عشرة أو الثالثة عشرة. وقد ينضجن قبل السن بشكل يستحق الاعتبار ويتزوجن في

(١) ويطلب الخادم من السيد الأوربي أجراً مرتفعاً. كما أنه يتناول منه منحاً أوفر عدداً وقيمة. وتلك العطايا إذا منحت بتعقل يكون لها أثر حسن، ولكنها كثيراً ما تشجع على الكسل والخداع

(٢) أنظر سفر الخروج ٢٢ / ٢٦ ، ٢٧ : (إن ارتهنت ثوب صاحبك فالى غروب الشمس ترده له. لأنه وحده غطاؤه. هو ثوبه لجلده. في ماذا ينام ..)

العاشرة[1] . إلا أن هذا الزواج المبكر غير شائع . وقلما تبقين بدون زواج بعد السادسة عشرة . وقد تصبح الفتاة المصرية أماً فى الثالثة عشرة أو قبل ذلك . ونساء مصر على العموم ولودات ، ولكن الأجنبيات اللاتى توطن مصر عقيمات غالباً . ويندر أن يعيش من يولد فى مصر من أولاد الأجانب إلى سن الكهولة ولو كانت الأم مصرية . ولهذا يرجع السبب فى تبنى المماليك المعتقين غيرهم من المماليك

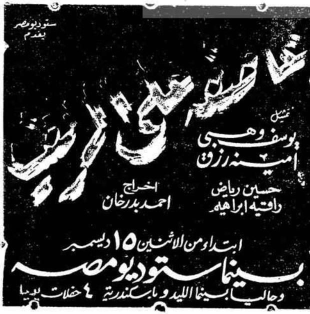
ومن الشائع بين العرب فى مصر وغيرها أن يتزوج الرجل من ابنة العم أو الخال . ويستمرون بعد الزواج على التنادى بألقاب القرابة . لأن رابطة الدم لا تنفصم ، ولكن صلة الزوجية عرضة للزوال . ومثل هذا الزواج يدوم على العموم بسبب رابطة القرابة ، وقد تربطهما وحدة البيئة فى طفولتهما ، ولكن قلما يسمح للفتى أن يرى وجه قريبته فى الطبقتين العليا والوسطى ، أو يقابلها أو يحادثها حين تقرب من سن البلوغ إلى أن تصبح زوجته

ويتم زواج العذراء فى القاهرة بالطريقة الآتية ، إلا إذا كانت أرملة أو مطلقة فيكون الحفل صغيراً . تبدأ أم الراغب فى الزواج أو إحدى قريباته بوصف الفتاة التى تكون عرفتها وذكر أحوالها ، وترشده فى اختياره[2] . وقد يستخدم خاطبة وهى امرأة عملها أن تساعد الرجال فى الزواج . وقد يستخدم أكثر من خاطبة . وتقدم الخاطبة بيانها عن الفتيات مسارة ، فتصف الواحدة أنها كالغزال جمالاً ورشاقة وصغيرة السن ، والأخرى أنها ليست جميلة ولكنها غنية ، وهكذا . والعادة أن تذهب أم الخاطب وبعض قريباته مع خاطبة لزيارة عدة بيوت . وللخاطبة حق الدخول لاحترافها سمسرة الزواج ، إذ أن النساء كالرجال يستخدمنها أيضاً . وقد تقوم الخاطبة بمهنة (الدلالة) أيضاً تبيع الحلى والملابس الخ ، فيسهل عليها دخول البيوت تقريباً . وتقدم النساء اللاتى يرافقن الخاطبة ، للبحث عن زوجة لقريبهن ، باعتبارهن زائرات فقط ، وقد لا يلبثن طويلاً إذا لم يصادفن مرادهن ، ويفهم الطرف الآخر طبعاً القصد من الزيارة . ولكن إذا وجدن بين نساء المنزل (ولا بد من رؤيتهن جميع من يصلحن للزواج) فتاة أو امرأة شابة تتحلى بالصفات اللازمة يكشفن عن قصدهن ويستفهمن ، إذا لم يكن طالب الزواج وقتئذ مستقبحاً ، عما تملك الفتاة من أملاك وحلى الخ . وقد تملك الفتاة إذا توفى أبوها منزلاً أو أكثر وحوانيت كثيرة الخ . وتملك كل بنت على وشك الزواج ، فى الطبقتين العليا والوسطى ، مجموعة من الحلى الذهبية والجواهر فى جميع الأحوال تقريباً . وبعد أن يستعلم الزائرات عن هذا وغيره يقدمن تقريرهن إلى الراغب فى الزواج . فإذا رضى بذلك البيان يقدم إلى الخاطبة هدية ويرسلها ثانية إلى عائلة الفتاة لتعرفهن رغباته . وتبالغ الخاطبة على العموم فى حديثها عن صفات الرجل الجذابة وثروته الخ ، فتتحدث مثلاً عن شاب خامل تعلم هى أنه لا يكاد يملك شيئاً ولا يمتاز بشىء بقولها : « يا ابنتى ، إن الشاب الذى يرغب فى الزواج منك صغير السن لطيف العشرة أنيق أمرد ذى جميل الملبس مغرم باللطائف ؛ إلا أنه لا يستطيع أن يتمتع بهذا الترف وحده فهو يريد أن تكونى شريكته . وسيعطيك كل ما يشترى بالمال ؛ وهو لا يخرج كثيراً ؛ وسيمضى وقته كله إلى جانبك بلاطفك ويدللك » .

عدلى طاهر نور

(١) وكثيراً ما يخطبن قبل ذلك بسنتين أو أكثر

(٢) وكان إرسال إبراهيم رسولا إلى بلده للبحث عن امرأة لاسحق ابنه (أنظر سفر التكوين ٢٤) يعتبر تماما عين الوسيلة التى قد يتبعها العرب المحدثون فى مثل هذه الظروف لو تيسر الأمر لهم .



اللحن الجديد

« للشاعر المجهول »

بَعدَ السنينَ الطوالْ   ورغمَ كيدِ الأعادي
قد جازَ فيكَ المُحالْ   ونلتُ منك مرادي

الليلُ غفوانَ يدري   ما كان بيني وبينَكْ
وكنت في الليل بدري   وكان نورُك حُسْنَكْ

في لحظةٍ صار عيشي   يَفوقُ عُمرَ الوجودْ
فليحرُس الحبُّ طيشي   في قطف تلك الورود

تِهْ بعد هذا وسافرْ   إلى أقاصي نَواكْ
لم يَبْقَ لي ما أحاذرْ   من شقوتي في هواك

لئِنْ صفاؤُك بعدي   كدَّرْتُ بالفتك وِرْدَكْ
أعيش إن رُمتُ وحدي   فعِشْ إن استطعتَ وحدَكْ

أنت الأسيرُ الرهينْ   لصَبْوتي وخَبالي
فاحذَرْ حِذارَ الطعينْ   من سطوتي وصيالي

أأنت تُخلِف وعدكْ   وكنتَ رمز الوفاء ؟
أأنت تُنكر عهدكْ   يا جذوةً من صفاء ؟

لِمن تكون ؟ أجبني   فأنت فوقَ الظنونْ
بمن أهيم ؟ أعِذْني   قد طاب فيك الفُتون

لو شئتُ، لا شئتُ، طارت   غوايتي عن حِماك
ولو أردتُ لجالتْ   مآثمي في رُباك

يا مِحنتي في المساء   وفتنتي في النهارْ
قد طال فيك العناء   فأين منك الفرارْ ؟

ماذا يريدُ غِضابُكْ   ماذا يروم جفاكْ
إلى الفؤاد إيابُكْ   إذا أردتُ لقاك

إرجعْ إليَّ تجِدْني   كما عَهِدتَ وأسمحْ
أو فانتظِرْ بعدُ مني   فتًى يُسمّى ويَذبح

ظَبيٌ يروح ويَغدو   في شائكات السُّهوب
ويأمنُ الليثَ يعدو   أأنت ذاك اللعوب ؟

سأستبيحُ احتِجابَكْ   إن ثارَ شوقي إليكْ
سأستجيرُ اغتيالَك   إن طال خوفي عليك

بيني وبين اقتناصِكْ   صُبابةٌ من حياءْ
فاسلُكْ سبيلَ خلاصِكْ   إنِ اشتهيتَ البقاء

إن كنتَ تُنكِرُ جهلاً   فتكَ القلوب الجوارح
فسوف أسقيك مَهْلاً   يُدمي عيونَ النوائح

لا ، إن تكونَ لغيري   والله ، لا ، إن تكونْ
وكيف يا وَحْيَ شِعري   أهابُ فيك المَنون

أضلَّ حبُّك قلبي   والحبُّ كالنور يهدي
أكان عندك ذنبي   أني وفيتُ بعهدي ؟

لولا التُّقى لجعلتُك   تسبيحةً في الصلاةْ
ألا تراني أسرتُك   تغريدةً في الحياةْ

أدوسُ جمرَ الجحيمْ   عند ارتياد جمالِكْ
فأين روضُ النعيمْ   عند استياف وصالك

لحنٌ كلحنِ الرحيقْ   في الكأس، ذاك بغامُك
فهل تراني أفيقْ   ومن شرابي كلامُك ؟

الزنبـــق

للأستاذ خليل مردم بك

حَيَّتْكَ باسمةً ثغورُ الزنبقِ   مفترةً عن طيِّبٍ متألِّقِ
ضَمَّتْ براعمُها شِفاهَ مقبِّل   وحنتْ عليكَ حنوَّ صبٍّ شيِّقِ
وكأنها فى الماء خودٌ شمَّرَتْ   عن ساقها عند الورود لتستقى
وكأنها استحيتْ فغضَّتْ طرفَها   وتطامنتْ خفرًا برأس مطرق
نهلتْ أفاويقَ الندى زهراتُها   فتفتحتْ كالشارب المتمطِّق
لم تقوَ صُفراها على برد الندى   أفما تراها ذاتَ ثغر أزرق
وترى عناقيد البراعم تنضوى   متلازماتٍ فى عناقٍ ضيِّق
من طيِّبِ الأنفاس والأردان ذى   جفنٍ على حلم التعانق مطبق

عذراء تستهوى العيونَ بطلعةٍ   وضَّاءةٍ بيضاء كالعرض النقى
تختال من زهو الصبى فى ميعةٍ   ومن الشباب وحسنه فى ريِّق
فكأنها ببياضها وسنائها   برزتْ إليك من الضحى فى رونق
وتسربلتْ بغلالةٍ وبريطةٍ   من سندسٍ خُضْرٍ ومن إستبرق
خفَّاقة الأقراطِ زهراء الحلى   معقودة الإكليل فوق المفرق
ما أقبلتْ إلا بثغرٍ باسمٍ   وبعقلةٍ نشوى ووجهٍ مُشرق
وكأنها سكرى تمايل عنقُها   ورنتْ بجفنٍ بالنعاس مرنَّق
مرَّ النسيمُ على الندى بجفونها   فترجرجتْ قطراتُه كالزئبق
إنى ليشجينى الندى متعلقاً   بجفونها كالمدمع المترقرق
تُنْبي بريَّاها وطيب شميمها   عن بابلىٍّ فى الدنان معتَّق
أنفاسُها تحيى النفوسُ وريحها   روحٌ تشيع بسائف متنشق

هيفاء إن رفَّتْ أعاليها بدتْ   فى الحوض شروي رايةٍ فى زورق
ماشئت فى زهراتها من كوكبٍ   متألقٍ بشعاعه متمنطق
كم زهرةٍ رفَّتْ نخلتُ فراشةً   بيضاء رفَّ جناحُها بترفق
أطباقها مثلُ الأنامل شُبِّكتْ   فى كل كِمٍّ تلتقى فى مأزق
أو كالجفون طويلةً أهدابُها   من ناعسٍ ومغمَّضٍ ومحدَّق
أو لؤلؤٍ رطبٍ تشظى حوله   صدفٌ أناف على بياض المهرق

إن الذى خلق الأزاهر خصَّها   بقضيبها وبتاجها والبهرق
الحُورُ فى جنات عدنٍ تُجتلى   والبيض منها فى خمائل (جِلَّقِ)

(دمشق)   خليل مردم بك

خدَّاكَ خدَّاكَ ، آهاً   من الجمال الفصيحْ !
عيناكَ عيناكَ ، واهاً   من الفتُون الجريح !

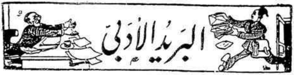
لم يؤذني بُخْلُ لفظِكْ   فى جَهْرِهِ والخُفُوتْ
عرفتُ من وحْى لحظِكْ   أن الهوَى لا يموتْ

لو قِيلَ يومَ احتضارى   هـــذا شقيقُ الفؤادْ
لأشرقتْ بكَ دارى   وكان يوم المَعاد

مَن أنتَ ؟ ضلَّ العَذُولْ   فى غابة الافتضاحْ ؟
مَن أنتَ ؟ لا ، لن أقولْ   سِرُّ الهوَى لا يُباح ؟

« الشاعر المجهول »

حكم فى القضية ٦٠٧ سنة ١٩٤١ عسكرية بنى سويف بتغريم نور الدين بدوى خضرى بشارع مقبل بنى سويف مائتى قرش لأنه باع بطاطس بأزيد من التسعيرة



غُبر وغَبر

لخص الأستاذ الكبير ا . ع فى كلته المنشورة بالعدد ٤٣٨ من الرسالة القضية التى بيننا حول كلة (عبر) واحتجاجى لها واحتجاجه عليها

وكنت قد أزمعت أن أفصّل بالشواهد رأيى . حتى نشرت الرسالة بالعدد ٤٣٩ كلة الأديب محيي الدين صابر بدار العلوم يدلنا على رواية أخرى لهذه الكلمة فى بيت سوار بن قارب وجَدَها فى تفسير ابن كثير وهى :

فشمرت عن ساق الإزار ووسّطَتْ
بى الدعلب الوجناء غُبْرَ السباسب

ثم قال إنه لا يستبعد أن تكون رواية عبر مصحفة عن غبر ، ثم نقل عن اللسان أن الغبراء هى الأرض التى لا يهتدى إلى الخروج منها

وأقول : إنها رواية سديدة جيدة ، ويؤيدها كثرة ورود هذه المادة (أغبر — غبراء ...) فى وصف السفر وقطع السباسب والفلوات ، ومن ذلك قول ذى الرمة :

وغبراء يقتات الأحاديث ركبها
وتشفى ذوات الضغن من طائف الجهل (١)

وقول الشّماخ :

وبلدٍ أغبر مخشيّ المعطب
يضحى به موج السراب يضطرب (٢)

وقول ذى الرمة أيضاً :

وغبراء يحمى دونها ما وراءها
ولا يختطيها الدهر إلا المخاطر (٣)

ومع هذا أقول : إن لهذه الرواية وجهاً من الضعف لا يخفى على اللبيب ...

(١) مجموعة المعانى ص ١٣٢ (٢) مجموعة المعانى ص ١٣٣
(٣) شرح المضنون به على غير أهله ص ١٠٢

ذلك أن العامل فى كلة غُبر فى رواية ابن كثير هو الفعل (وسطت) ... والكلام بهما مستقيم لا غبار عليه . ولكننا نعلم أن الرواية فى بعض المصادر (أرقلت) وهذه لا تتفق مع كلة غبر جمع غبراء ولا يستقيم الكلام بهما لأن الإرقال هو الإسراع وفعله لازم(١) . فما معنى « وأسرعت بنا الناقة غبر السباسب » ؟

زد على ذلك أن الروايات مختلفة فى هذه الكلمة فهى (عبر) فى جمهرة شعر العرب ص ٢٦ ، وهى (بين) فى سفينة الراغب ص ٦٣٨ ، والسيرة الحلبية ج ١ ص ٢٦٧ ، وشرح لامية العجم للصفدى ج ١ ص ١٨ ، وهى غبر فى ابن كثير

واختلاف الروايات على هذا النمط — مضافاً إليه وجه الضعف الذى ذكرت يعوز رواية ابن كثير إلى مرجح . فلسنا نستطيع إذن أن نقطع بها إلا بهذا المرجح المنشور

وبعد ... فقد رجا الأديب محيي الدين أن تكون هذه الرواية قد حلت ما بيننا من ألغاز النحو وأحاجيه ، وأقول إن القضية قد خرجت من كلة (عبر) صحيحة كانت أو فاسدة ، إلى قضية نحوية أخرى جديرة بالبحث والتمحيص ، قلت وقال فيها الأستاذ ا . ع وليس من مصلحة اللغة أن يبتر الكلام فيها ... هى قضية المصدر الذى يقع حالا . وإن لى فى هذا الموضوع بحثاً للاجتهاد فيه نصيب كبير أرجو أن أوفق إلى عرضه إن اتسع صدر الرسالة لمثل هذه البحوث وإنه لكذلك إن شاء الله

محمد محمود رضوان

رسالة المعلم الإلزامي وكيف ينبغى أن تكون

أبنا فى كلمتنا السابقة عما يجب أن يكون عليه المعلم الإلزامى ووعدنا القارئ الكريم أن نجيب على تلك الأسئلة التى طالما جهر بها المشفقون على الأمة عن رسالة المعلم الإلزامى وهل يقدرها المعلم ؟ وهل أداها على الوجه المرضى ؟ وإذا لم يكن فلماذا

إما أن المعلم يعرف رسالته فهذا ما لا سبيل إلى جحوده ، وإما أنه أداها على الوجه الأكمل فهذه مسألة فيها نظر ...

(١) نعم إنه قد يأتى متعديا بمعنى قطع ولكنه قليل لا يكاد يذكر فيا أعلم فلا يعتد به

قام المعلم بعمله على قدر ما وسعه جهده ، ولكنه ارتطم بعوامل قوية حدت من عمله ، وأضعفت من معنويته ، وكان من أهم تلك العوامل

١ — أن وضع نظام « التعليم الإلزامى » لم يكن الوضع الطبيعى لمسايرة حاجة المجتمع فلم يحدده هدف ، ولم يرسم له خطة فنظام « نصف اليوم » وتخبط الوزارة فى خطط الدراسة والمقررات وعدم الاستعانة بعنصر المعلم الالزامى فيما يعتورها من مشاكل جعلته يمشى حبواً

٢ — عدم تقدير المعلم ، لا من الحكومة ولا من الشعب ، والحكومة وضعت العراقيل فى طريقه ولم توفر له وسائل العمل ، والشعب نفسه لم يتهيأ لأن يهضم هذا النوع من التعليم ، ونظر إليه نظرة المتشكك الوجل — وكان الناس فى هذا فريقين : فريق الأغنياء ، وقد خشوا على أنفسهم أن يتعلم الشعب ، وفى هذا انهيار لهم كما كانوا يظنون . . . وفريق العامة ، وقد كانوا نحو التعليم كالطبيب المداوى مع مريضه الجاهل

٣ — مرتب المعلم : حددت له الدولة راتباً ضئيلاً لا يكفيه للقوت الضرورى ، فجعلته يئن تحت عبء الحاجة

٤ — أرهق بالعمل إلى درجة الإعياء ، وضنت عليه الدولة بما يفتقر إليه من كتب ومراجع وأدوات

ولكن المعلم بقى وحده يصارع تلك العوامل بقوى نفسية عجيبة كان من أثرها قيام « اتحاد التعليم الإلزامى » ، فساعد المعلم على إزالة تلك الأشواك من طريقه ، وأمكنه أن يسمع صوت المعلم لمن بيدهم الأمر ، وها هو ذا قد نجح ببعض الشىء ، وكان من أثر ذلك أن تهيأت الأسباب لقبول دعوته ، وأرهفت الآذان وتفتحت لسماع حجته ، فتحركت الوزارة أخيراً فنشطت للعمل ، وها هو المجلس الأعلى ينظر ويبحث

ولو أن الدولة كرست جهودها لتحقيق مطالب التعليم الإلزامى ويسرت المعلم أسباب العمل — لكفاها مؤونة تلك الجهود التى تذهب سدى من تلك الجمعيات — ولقام هو بأفضل مما تقوم به وزارة الشؤون الاجتماعية

والأمل كبير فى الله وبفضل الاتحاد والاعتصام بالعروة الوثقى ، ومن كان لهم الفضل فى الأخذ بيد المعلم وعلى رأسهم أستاذنا الكبير الزيات أن تثمر رسالة المعلم وينجح التعليم ، وأن تنهض البلاد ، وفقنا الله إلى ما فيه الخير

محمود محمد عبده

وكيل نقابة القاهرة لتعليم الالزامى

خطأ فى كتاب المفصل

فى كتاب « المفصل فى تاريخ الأدب العربى »(1) — تأليف بعض رجال المعارف — الأبيات التالية منسوبة إلى ابن رشيق القيروانى :

ولما بدا لى أنها لا تحبنى ... وأن هواها ليس عنى بمنجلى
تمنيت أن تهوى سواى لعلها ... تذوق صبابات الهوى فترق لى
فما كان إلا عن قليل وأشغفت ... بحب غزال أدعج الطرف أكحل
وعذبها حتى أذاب فؤادها ... وذوقها طعم الهوى والتذلل
فقلت لها ، هذا بهذا ، فأطرقت ... حياء وقالت : كل عائب ابتلى

وهذه الأبيات نسبها ابن رشيق فى عمدته إلى على بن الله من سلالة جعفر بن أبى طالب حيث قال(2) : « ومثل هذه الحكاية ما قاله بعض الكتاب ، وقد دخل على على بن عبد الله بن جعفر ابن إبراهيم بن محمد بن على بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب وهو محبوس ، أين هذا الجعفرى الذى يتديث فى شعره ؟ قال على : فعلمت أنه يريدنى لقولى : ولما بدا لى الأبيات فقلت أنا هو جعلت فداك »

(العراق — حلة) عبود كاظم

بين صبرى وابن دريد

وقع نظرى على أبيات فى الغزل لإسماعيل صبرى وردت فى ديوانه . . . بعثت فى نفسى دهشة عجيبة لا لروعتها وفتنتها ، بل لأنها خلقت مشكلة عجيبة ، فما هى هذه المشكلة ؟

المشكلة أن هذه الأبيات بقليل من التحريف اللفظى وجدتها منسوبة « لأبى بكر بن دريد » فى مقال للشاعر الكبير محرم

(١) المفصل — الجزء الثانى ص ١٨٠

(٢) العمدة — الجزء الثانى ص ١١٨ — ١١٩

بالعدد الثانى من المجلد الثالث لمجلة أبولو (أكتوبر سنة ١٩٣٢)

أما البيتان الواردان فى ديوان صبرى فهما :

إن الذى أبقيت فى مهجتى يا متلفَ الصبِ ولم يشعُرِ
حُشاشة لو أنها قطرةٌ تجول فى عينيكَ لم تُنظَرِ

وأما بيتان «أبى بكر بن دريد» الواردان فى مقال الشاعر محرم فهما :

إن الذى أبقيت (من جسمه) يا متلفَ الصّبِ ولم يشعر
(صُبابةٌ) لو أنها قطرةٌ تجول فى جفنيكَ (لم تقطر)

فليس من شك فى أن صبرى قد سرق البيتين وليس له غير تغيير لم يوفق فيه . وليس من شك أيضاً فى غفلة المحققين لديوان صبرى عن هذه السرقة العجيبة .

حسين محمود البشبيشى

أيهما أصلح لتعليم الأطفال المعلم أم المعلمة؟

كنت أعتقد بعد أن كتب الأستاذ الزيات كلمته عن المعلمين وبعد أن قدم الأستاذ مصطفى شكرى بك تقريره عن التعليم الأولي ، أن وجه الحق فى هذا الموضوع قد أصبح واضحاً ، وأن مجال القول لم يعد فى حاجة إلى إعادة ، وباب الكلام لا يتسع لزيادة!

ولكنى قرأت فى جريدة (المصرى) رأياً لوكيل وزارة المعارف المساعد الأستاذ شفيق غربال بك استحسن فيه إحلال المعلمات محل المعلمين ، وتمنى لو استطاعت الوزارة أن تعمم هذا فى جميع المدارس . وقال : (إن إحلال المعلمات محل المعلمين فى المدارس الأولية والإلزامية للبنات مشروع عظيم ؛ لأن المعلمة كالأم ، والأم أولى بحضانة الطفل ، ولو استطعنا أن نعمم ذلك فى المدارس الأولية والإلزامية ، لكان هذا أوفق وأحسن)

قرأت هذا وفهمت منه أن الأستاذ الوكيل يرى أن المعلمة أوفق وأحسن من المعلم حتى فى تعليم البنين ، لأنها كالأم والأم أولى بحضانة الطفل ! !

ولا شك أن هذا كلام يقال فى مقام العواطف لا فى مقام التربية والتعليم ، وإن حرمان الطفل من عناية المعلم أبلغ فى الضرر من حرمانه من رعاية المعلمة ! وحاجته إلى أبيه ، لا تقل عن حاجته إلى أمه ، وإذا قلنا إن المعلمة ستبعث فى نفسه الحنان والعطف والرقة والشعور بالجمال ، فإنه سيبقى مع ذلك فى حاجة إلى من يعلمه الرجولة والشجاعة والحزم والتضحية والبطولة والاعتداد بالنفس . ومن الذى يستطيع هذا غير المعلم ؟

أما الحضانة فليست للأم إلا قبل سن التعليم . فإذا بلغ الطفل السابعة كان لأبيه بنص الشريعة ؛ لأنه أدرى بتربيته ، وأبصر بمصلحته .

وإذاً يكون الاستدلال بحق الأم فى الحضانة غير متفق مع قواعد المنطق ، ولا مع وقائع الحال

والناس يرون الرجل الذى تنفرد المرأة بتربيته ناقص الرجولة ويقولون عنه (إنه ابن امرأة !!)

ولم تأخذ البلاد الأوربية إلى الآن بنظرية انفراد المعلمة بتربية الطفل مع أن المرأة عندهم سبقت المرأة عندنا بأجيال ! كما أن ثقافة المعلم عندنا أرقى من ثقافة المعلمة ، لأن منهاج مدارس المعلمين أوسع من منهاج مدارس المعلمات ؛ والمعلم يزيد فى ثقافته بالدرس والمطالعة ، بينما المعلمة لا تفكر فى شيء من هذا بعد خروجها من المدرسة . والوزارة نفسها جعلت مناهج البنين غير مناهج البنات فى المدارس الإلزامية ! وفى كل هذا ما لا يستقيم مع رأى سعادة الوكيل !

على أن الوزارة قد حاولت تجربة هذه الطريقة منذ خمس سنوات ، فأشركت المعلمات مع المعلمين فى مدارس البنين . وترتب على هذا أن ساءت الحالة العلمية ، واختل النظام ؛ لأن المعلمة كانت تقف فى وسط التلاميذ حائرة . فإذا ثاروا وعجزت عن إسكاتهم جلست تبكى مغلوبة على أمرها ، حتى يأتى أحد المعلمين ، فيسكت التلاميذ عند رؤيته ، ويلزم كل واحد منهم عمله !

وأذكر أن معلمة ذهبت تشكو لرئيس المدرسة تلميذاً ، لأنه كان كلما ضربته بالمسطرة على يده يضحك ويسألها المزيد !

واضطرت الوزارة آخر الأمر وبعد أن ضج المفتشون من الفوضى . إلى تخصيص المعلمات بالتعليم فى مدارس البنات !

وإذاً يكون القول بإحلال المعلمات محل المعلمين فى المدارس الإلزامية مجازفة غير مأمونة العاقبة ، وفكرة أثبتت التجارب السابقة فشلها !

وأكبر ظنى أن مثل هذه الآراء المرتجلة ، هى التى أضاعت التعليم الإلزامى ، وأفسدت طرائقه ، وغيرت حقائقه ، وحالت بينه وبين الإنتاج المنشود . ولو أنصف القائمون بأمره لردوا الأشياء إلى أصولها ، والأصول إلى قواعدها ، ولرجعوا إلى المعلم يسألونه رأيه فيما هم فيه مختلفون ، ويستخبرونه عما لا يعلمون .

(المنصورة) على عبد الله



الميتة . . .

لجى دى موباسان

بقلم الأديب كمال رستم

أحببتها حباً عنيفاً ! لم يحب الإنسان ؟ أليس عجيباً ألا ترى في العالم إلا إنساناً ؟ ألا تقوم في النفس إلا فكرة ؛ ولا في القلب إلا رغبة ؛ ولا في الفم إلا اسم ! اسم يرق دواماً ! ... يرق كماء نبع نجاج من أعماق نفس ولهى ! يرق إلى الشفاه ! نذكره ! ونذكره ! نتمتم به دائماً ، وفي كل مكان كأنه صلاة !

سوف لا أقص قصتنا ؛ فليس للحب إلا قصة واحدة ! قابلتها وأحببتها ! هـذا كل ما في الأمر ! وعشت عاماً تغمرني رقتها ، ومحتويني بين ذراعيها ، ويخصني بظرفها ، وترعاني بلحظها ؛ وتلفني بأدثرتها ، وتهمس إلىّ بكلماتها ! ... محاطاً مطوقاً ، حبيساً في كل ما يصدر عنها بهذه الطريقة الفاضلة التي لم أحاول أبداً أن أعرف غيرها ، ليلاً كان أو نهاراً ، حياً كنت أو ميتاً ، على هذه الأرض العجوز أو في مكان آخر

ماتت زوجتي إذن ! كيف ؟ ... لا أدرى !

عادت ذات مساء مطير ، يبلل المطر ثيابها ، وفي اليوم التالي سعلت ، واستمرت تسعل حوالي أسبوع لزمت بعده سريرها !

كيف حدث ذلك ؟ ... لا أدرى !

عادها أطباء ... وصفوا الدواء ... ومضوا ! ...

واستحضرت أدوية ... وامرأة تجرعها إياها ! ...

كانت يداها دافئتين ، وجبهتها متقدة منداة ، ولحظها وامضاً حزيناً . حدثتها وأجابتني ! ما الذي قلناه ؟ لا أدرى !

نسيت كل ما قيل ! كله ... كله ! ... ماتت إذن ! وإني لأذكر جيداً آهتها الخافتة . آهتها الأخيرة ! ... وتأوهت المريضة قائلة : « آه » ! فأدركت ... أدركت ! ...

لا شيء ؛ عرفت أكثر من ذلك ! أبصرت قساً انفرجت شفتاه عن كلمة «خليلتك» ! خيل إلىّ أنه سبها ؛ فليس لنا الحق منذ ماتت أن ندعوها كذلك ، ولذلك طردته ! وحضر آخر وكان طيب القلب للغاية ، لطيفاً للغاية حتى لقد استعبرت عند ما حدثني عنها ! ولقد أُخذ برأيي في ألف شيء بخصوص الجنازة ، لا أذكر الآن منها شيئاً مطلقاً وإن كنت أذكر جيداً صورة ناووسها ؛ وصوت المطرقة حينما أغلقوه عليها ! ... أواه يا إلهي ! ... ووورريت ... ! ووريت ! هي ! في هذه الحفرة ! وحضر بعض الناس ! بعض الأصدقاء ! فررت منهم ! همت على وجهي طويلاً في الطرقات ! ثم عدت أدراجي إلى منزلي ؛ وفي اليوم التالي قمت بسفرة طويلة ! ...

***

رجعت أمس إلى باريس ! ...

وعند ما رأيت ثانية غرفة نومي ؛ غرفة نومنا ! مهادنا ، أثاثنا ، كل ما في هذا المنزل ... كل ما بقى من حياة شخص بعد موته ... أصبت برجمة حزن محض ! فقمت إلى النافذة وأطللت منها على الطريق ! ...

ولما لم أستطع أن أصبر على الإقامة بين هذه الأشياء ، بين هذه الجدران ، تناولت قبعتي وخرجت أبغي فكاكا ! وفي طريقي إلى الباب مررت بمرآة البهو الكبيرة التي وضعتها هناك ، لترى فيها نفسها من رأسها إلى إخمص قدميها كل يوم عند خروجها لتتأكد من أن زينتها كاملة ، وأنها تبدو جميلة آسرة من حذائها إلى قبعتها ! ...

وقفت أحدق في هذه المرآة التي طالما عكست صورتها ، طالما ! طالما ! . حتى خيل إلىّ أنها تتراءى فيها ! . . .

كنت ثم واقفاً ، مرتجفاً ، وعيناي مثبتتان على زجاج المرآة ؛ على الزجاج المسطح ! الضيق ! الرحيب ! ... الزجاج الذي يحتويها ! يحتويها بأكلها ؛ يتمتع بمشاهدتها أكثر مني ؛ أكثر من نظرتي الولهى ! ... خيل إلىّ أني أحببت هذه المرآة ! لمستها ؛ ألفيتها باردة أواه ! يا لها من ذكرى ! يا لها من ذكرى ! مرآة مؤلمة ! مرآة متقدة ! مرآة حية ! مرآة مروعة ! ...

سعداء هؤلاء الذين يحكى قلبهم مرآة ؛ يدعون صور المرئيات تنزلق عليها ، ويزيلونها متى شاءوا ، فينسى كل قلب ما احتواه ؟ ... كل ما مر أمامه ! كل ما شاهده ! كل ما سدد إلى عواطفه ! . إلى حبه ! ... كم أتألم ! ...

وخرجت ، وعلى غير وعى ! على غير إدراك ؛ دلفت إلى المقابر . وثم رأيت رمسها بسيطاً جداً ... رأيت صليباً من الرخام نقشت عليه هذه الكلمات ؟ ...

« أحبتنى وأحببتها ثم ماتت » !

كانت هناك ! فى أسفل ! عظاماً نخرة ! يا للهول !

لبثت هناك طويلاً ، طويلاً . . . ولما أقبل الليل قامت فى نفسى رغبة غريبة ، رغبة مجنونة ، رغبة نفس قانطة ! تشوفت إلى قضاء الليلة قريباً منها . . . ليلة أخيرة أذرف دمى على قبرها !

ولكنهم سيبصرون بى وسيطردوننى ؛ فما العمل ؟ . . . نهضت ، وأخذت أضرب فى مدينة الموتى هذه . . . مضيت ! مضيت ! كم هى صغيرة هذه المدينة إلى جانب أختها ؛ تلك التى تراها ، ومع ذلك فالأموات أكثر عدداً من الأحياء

وإنه لمن المفارقات حقاً أن تكون كل هذه الدور الفخيمة ، والميادين الفسيحة ؛ كل هذه المساحة الشاسعة للأحياء القليلين ، يرقبون النهار ليتنفس ، ويكرعون ماء الينابيع وسلاف الكروم ، وينعمون بخيرات السهول ، بينما لا يكون لكل أجيال الموتى شىء . . . حقل . . . تقريباً لا شىء . تستردهم الأرض . تجعلهم نسياً منسياً ... تبتلعهم ... ثم الوداع ! . . .

وفى نهاية القبور المأهولة ، أبصرت فجأة القبور المهجورة ، حيث بليت جسوم الموتى على طول الزمن وتم اختلاطها بالثرى ! حيث الصلبان نفسها قد تداعت ... وحيث يرقد فى الغد هؤلاء الذين قدر لهم أن يفنوا ... مكان ملىء بالورود المبعثرة ، وأشجار السرو السوداء السامقات . . . حديقة حزينة شاسعة تعيش على جثث البشر ...

وكنت هناك وحدي فتسلقت شجرة خضراء وتواريت بين أفنانها الملتفة الظليلة كغريق يتشبث بما يصادفه ...

* * *

ولما احلولك الليل ... غادرت مكمنى ومشيت فى خطوات وئيدة ، فى خطوات مخنوقة ؛ على هذه الأرض المفعمة بالموتى . . . وأخذت أجول طويلاً طويلاً دون أن أقف لقبرها على أثر . . . الذراعان ممدودتان . . . العينان مفتوحتان . . . متلمساً القبور بيدىّ ، بقدمىّ ، بساقىّ ، بصدرى ، برأسى نفسه ... ؟

مضيت كضرير يتلمس طريقه . . . لمست الأحجار ، والصلبان ، والنوافذ الحديدية ، والتيجان الزجاجية ، والأكاليل الزهرية الجافة ...

ورحت أقرأ الأسماء بأصابعى أمر بها على الحروف ... يا لها ليلة ، يا لها ليلة ؟ لم أجد قبرها ...

وكان القمر غائباً فاستولى علىّ الخوف ، وخوف مروّع فى هذا المكان الموحش ... بين صفين من القبور ... ؟

القبور ! القبور ! القبور ... !

قبور . . . إلى اليمين وإلى اليسار . . . إلى الأمام وإلى الخلف ... فى كل صوب قبور ... !

تهالكتُ على واحد منها ، لأنى لم أستطع أن أتابع السير أكثر من ذلك . . . لأن ساقىّ كانتا تلتويان . . . أصخت بأذنىّ أصغى لوجيب قلبى ... أصغى أيضاً لشئ آخر ... ماذا . . . ؟ نبأة مبهمة لا اسم لها . . . أكان ذلك فى رأسى المجنونة ... أكان ذلك فى غبش الليل الضارب سجوفه وأسداله ، أم تحت الأرض الخفية ... تحت الأرض المزروعة بجثث البشر ؟ !

كم من الوقت مكثت هناك ؟ لا أدرى ... غدوت قميداً من الخوف ... أصبحت ثملاً من الرعب ... على أهبة الصياح ... على أهبة الموت ... وفجأة ، خيّل إلىّ أن لوح الرخام الذى كنت جاثماً فوقه قد تحرك ... حقاً ، تحرك كما لو كان قد رُفع ... وبفطرة واحدة ألقيت بنفسى على الجدث المجاور ... وشهدت ... نعم ، شهدت الحجر الذى غادرته قد انتصب واقفاً

وظهر الميت ... هيكل عظمى ليس غير ... ! وإن كان الليل وقتذاك قد نشر على الكون ذوائبه . . . فقد رأيت . . . رأيت جيداً على الصليب هذه الكلمات : (هنا يرقد « جاك أوليفان » المتوفى فى الواحدة والخمسين من سنى حياته ، كان محباً لذويه ، شريفاً ، طيب القلب ... وتوفى إلى رحمة الله ... !)

ولما قرأ الميت هذه الكلمات المنقوشة على قبره ، انحنى إلى الأرض ، والتقط قطعة من الصخر ... قطعة صغيرة مدببة ... وأخذ يزيل هذه الكلمات بعناية ودقة ... أزالها عن آخرها ببطء وهدوء ، محدقاً بعينيه الواسعتين فى المكان الذى كان منذ برهة متوارياً فيه ... وبطرف العظمة التى كانت يوماً ما سبابته ... كتب بحروف براقة لامعة :

« هنا يرقد « جاك أوليفان » المتوفى فى الواحدة والخمسين من سنى حياته ، تعجل بقسوة قلبه موت أبيه ليرثه ، عذب زوجه ، أشقى أولاده ، خدع جيرانه ، سرق كل ما استطاع سرقته ، ومات شقياً ... ! »

... ولما انتهى الميت من كتابته أخذ يشهد نتيجة عمله ... ولاحظت فى عودتى أن كل القبور قد فتحت ، وأن كل الهيا كل العظمية خرجت منها ، وأن الجميع مسحوا تلك الأكاذيب التى خطها ذووهم على قبورهم ليموهوا على الناس ؛ ورأيت أنهم كانوا جميعاً قساة القلوب ، حقودين ، مرائين ، كذابين ، خبثاء ، مفترين ، حساداً ... رأيت أنهم سرقوا وخدعوا وارتكبوا كل الأفعال المخجلة ، ووصموا بكل خلق دنىء . . . وهؤلاء الآباء المطيعون ... هؤلاء الزوجات الوفيات ... هؤلاء الأبناء المخلصون ... هؤلاء الحفيدات العفيفات ... هؤلاء الرجال وهؤلاء النساء ... لا لوم عليهم جميعاً ، لأنهم لا يستطيعون أن يقرروا الحقيقة المؤلمة ... !

وراءوا جميعاً يخطون فى وقت واحد على عتبة مسكنهم الأبدى الحقيقة القاسية ، الحقيقة المروعة ، الحقيقة المقدسة التى يجهلها الجميع أو يتجاهلونها وهم على قيد الحياة ... !

وأيقنت أنها لا بد قد قامت تكتب على جدثها ، وبدون أدنى خوف الآن ... فركضت وسط التوابيت نصف المفتوحة ، وسط الجثث ، وسط الهيا كل العظمية ... مضيت إليها واثقاً أنى سأجدها فى الحال ... ورأيتها من بعد ... من غير أن أستجلى وجهها ، لأنها كانت قد غطته بالكفن ... وعلى الصليب الرخامى الذى قرأت عليه منذ برهة :

« أحبتنى وأحببتها ثم ماتت ! »

لمحتها تكتب : « خرجت يوماً لتخون زوجها ، فأصابها برد تحت شؤبوب منهمر وماتت ! »

ورأيتنى أهوى إلى الأرض مغشياً علىّ . وفى اليوم التالى وجدونى مسجّى إلى جانب مقبرة ... !

« المنصورة » كمال أحمد رستم

(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع السلطان حسين — عابدين)